تركيب الرقيم السومري للنشر والتوزيع

2026

رجال ونساء على الهامش

في هذه المجموعة القصصية المتكونة من أحدى عشرة حكاية يدور السرد عن ضحايا الامراض العقلية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي رافقت ظهور تلك الشخصيات، بهدف الحد من ظاهرة التنمر عليها.



أُعِدَّ بواسطة
حامد تركي هيكل

الطبعة : الثانية
https://sss-publisher.com/

رجال ونساء على الهامش

حكايات من البصرة

رجال ونساء على الهامش
حكايات من البصرة
حامد تركي هيكل
التصنيف : الادب والروايات
الطبعة: الثانية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (بلا) لسنة (بلا)

ISBN:978-9922-7965-50

DOI:10.62909/978.9922.7965.50

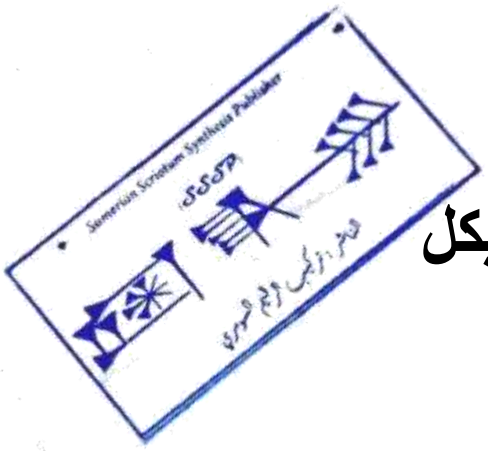


دار تركيب الرقيم السومري للطباعة والتوزيع والنشر الالكتروني
العراق – ديالى – بعقوبه – شارع الاوقاف
هاتف : ٠٧٧٧٥٢٦٢٨٩٢
manager@sss-publisher.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو وساطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

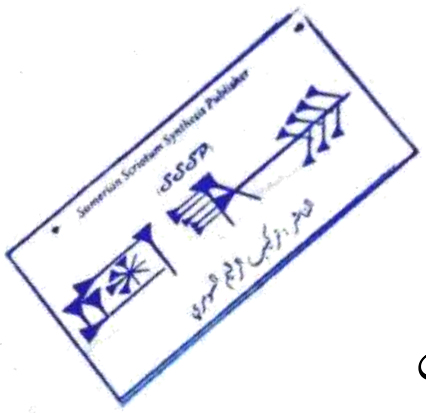
جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

رجال ونساء على الهامش
حكايات من البصرة



حامد تركي هيكل

٢٠٢٦



تنضيد الكتاب

معهد الترجمة والكتاب

«ماليزيا»

تصميم الغلاف

محمد سيامند طاهر

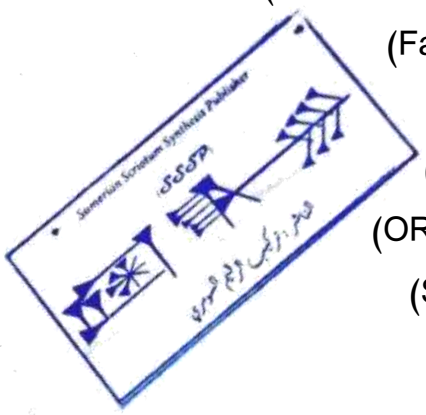
مراجعة لغوية

الدكتور محمد محمد كاظم

«العراق»

التوزيع والنشر الإلكتروني ، تمت فهرسة هذا الكتاب في عدد من الفهارس والمنصات الدولية، منها:

كروس ريف	(CrossRef)
أوبن ألكس	(OpenAlex)
مؤشر الاقتباس المفتوح الأوكراني	(OUCI)
سجل مستودعات الوصول المفتوح	(ROAR)
سيمنتك سكولار	(Semantic Scholar)
دايمنشنز	(Dimensions)
ريسرش غيت	(ResearchGate)
فات كات	(Fatcat)
المعيار الدولي للترقيم	(IAS)
مؤشر الاستشهاد العلمي	(SCI)
أوركيد	(ORCID)
سايليت	(Scilit)



الموقع الرسمي لدار النشر الرقيم السومري للنشر والتوزيع

يتوفر هذا الكتاب عبر الموقع الرسمي لدار النشر، مع تخصيص مُعرّف رقمي دائم (DOI)

خاص به https://doi.org/10.62909/978.9922.7965.50

978-9922-7965-50

إهداء

إلى كل الذين عاشوا معي تلك السنوات الهادئة الجميلة في البصرة، لنتذكرها معًا.

إلى كل من لم يعيشوها، لنرسم معالمها معًا في خيالنا.

إلى ذكرى أولئك الذين عاشوا على هامش الحياة والذين سحقتهم القسوة ونبذهم المجتمع، إلى ذكرى تلك الشخوص المثيرة للدهشة، والتي لفَّها الغموض، معذرةً.

إلى كل من يقرأ هذه السطور، لننظر لأمثال أولئك الغرباء عنّا نظرة تليق بهم كبشر.



الصورة (١)

المحتويات

المقدمة	٠٨
الحكاية الأولى – قاسم	١٢
الحكاية الثانية – غُنوم	١٦
الحكاية الثالثة – حمادووه	٢٤
الحكاية الرابعة – سامي	٣٠
الحكاية الخامسة – سيد عون	٣٨
الحكاية السادسة – شهاب	٤٦
الحكاية السابعة – عبود	٥٤
الحكاية الثامنة – فطنة	٦٤
الحكاية التاسعة – سرور	٧٨
الحكاية العاشرة – جاسم	٩٠
الحكاية الحادية عشرة – أمل	١٠٠

المقدمة

قطعت على نفسي عهدًا أن أكتب كل ليلة من ليالي رمضان الفائت قصة تحكي عن واحد أو واحدة من المجانين أو المعتوهين أو المرضى النفسيين أو العقليين، سِمّهم ما شئت، فهم في النهاية ضحايا، عاشوا بيننا، عرفت بعضهم،وسمعت عن بعضهم الآخر. واليوم أعترف أن ذلك القرار كان متسرعًا، فقد كان أكبر من قدراتي. ذلك لأنني بالكاد استطعت أن أكتب عن ثمانية منهم.

ساعدني كثير من الأصدقاء الأعزاء الذين قدموا لي المعلومة، أو راجعوا معي النصوص،وهم كل من كامل أمين هاشم، عباس حافظ الديراوي، سلمى إبراهيم، طالب غالي، رمضان البدران، وواثق غازي عبد النبي.

حاولت أن استبعد الاسماء الحقيقية لاعتبارات كثيرة، واستعضت عنها بأسماء وهمية من صنع الخيال. ولذلك أنوّه هنا أن كل الاسماء المذكورة في هذه الحكايات وهمية لا وجود لها في الواقع. وفي حال وجود تشابه أسماء مع أناس واقعيين فهو محض صدفة غير مقصودة.

كان هدفي من هذه الحكايات هو شجب التنمّر والاعتداء بكل أشكاله على هذه الشريحة المهمشة والمظلومة في المجتمع. فضلا عن تسليط الضوء على فكرة شجب التنمر والتمييز والتعالي على كل شريحة أخرى أو شخصية أخرى. كما أنني حاولت إعادة الحياة لبيئات مدنية وريفية لم يعد لها وجود للأسف. فقد أختفت تلك المعالم الجميلة.

لقد لاحظت انتشار ظاهرة النوستالجيا، ونشرت مقالة حول هذه القضية عنوانها (الحنين إلى الماضي)، انتقدت فيها إنكفاء الناس على الماضي وتمجيده والتغني به بشكل سلبي. في هذه الحكايات حاولت استثمار الماضي بشكل ايجابي. وأرجو أن أكون قد نجحت في مسعاي هذا. فمن جهة أعرض الحياة اليومية السابقة بكل جمالها وسلامها، ومن جهة أخرى أسلّط النقد على ظواهر قد تكون من الماضي أو من الحاضر. فضلًا عن إسعاد القرّاء في أيام المكوث بالبيت بسبب كورونا، وإشغال وقت الفراغ الزائد عن الحد المألوف بعمل مفيد.

ولقد وردتني رسائل من العديد من الأصدقاء، وسعّوا فيها دائرة الفكر بخصوص قضية الجنون. فكانت اضافات مهمة، كارتباط الظاهرة بالعلاقات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي آمل أن أستثمر بعضها في أعمال لاحقة. فقد ذكر بعضُ الأصدقاء أن المتسولين والمجانين والباعة الجائلين كانوا وكلاء أمن تستخدمهم السلطة للتجسس على الناس. والدليل على ذلك أنهم كانوا كثيرًا ما يختفون بظروف غامضة، وهذا يعني أنهم نُقلوا إلى مواقع أخرى، أوكلفتهم دوائرهم بمهام أخرى. في حين ربط آخرون الظاهرة مع الهجرة، زاعمين أن الرثاثة قد طغت في

المدن المهمة بسبب تلك الهجرة ، فانتشر المتسولون والنشّالة، وانتشرت مشاهد لمجانين يجوبون الشوارع. وذهب آخرون إلى أن كثرة المجانين في ذلك الوقت سببه التعذيب الذي كانت تنتهجه أجهزة الدولة الأمنية، مؤكدين أن التعذيب يؤدي إلى العوق والجنون. آخرون رأوا أن الجنون مرتبط بازدياد تعقيد المجتمع وقلة الإيمان وابتعاد الناس عن الالتزام بتعاليم الدين. فيما أقرَّ آخرون أن الجنون والعته موجود في كل العصور وفي كل الأماكن، ولكن الظاهرة تكون واضحة في المدن الكبيرة. فيما إعتقد البعض أن الظاهرة إنخفضت بعد ٢٠٠٣ بسبب الحرية والديمقراطية وارتفاع مستوى دخل الفرد وازدياد دور علماء الدين والقنوات الدينية. ورفض آخرون هذا الرأي متهكمين ومُدَّعين أنه بسبب الفساد والرثاثة التي انتشرت مؤخرًا فلم يعد المرءُ قادرًا على تمييز المجنون من غيره! وقد أثار آخرون قضية إنتشار عصابات الإتجار بالأعضاء البشرية في السنوات الأخيرة والتي تقوم بخطف الأطفال وغيرهم من أجل سرقة أعضائهم الحيوية، غير مستبعدين قيام تلك العصابات بخطف المجانين من الشوارع من أجل الاستحواذ على أعضائهم، ما أدى إلى اختفائهم من الشارع.

نصحني صديق مشكورًا بقراءة ميشيل فوكو وتاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي. وقد بدأت بقراءته فعلًا. شكرًا لأصدقائي ولكل من شجّعني، ولكل من قرأ أو سيقرأ هذه الحكايات.

الحكاية الأولى



الصورة (٢)

قاسم

الحكاية الأولى

قاسم

كنت في العاشرة من العمر، حين حلَّ رمضان مرةً أخرى. قبل المغرب بلحظات كانت أمي تكلفني بحمل صينية تحتوي على غضارة تشريب، وطاسة شوربة، وأحيانًا صحنًا من الهريس أو صحنًا من المحلَّبي لأتوجه بها إلى بيت قاسم. في تلك الساعة من رمضان تخلو الطرقات من المارّة. فالجميع داخل بيوتهم. فقيرة كانت أم غنية، بسيطة أم متعددة الألوان والأطباق، لا تفقد مائدة الأفطار أهميتها وجاذبيتها الاستثنائية، لذا ينتظرها الجميع بشوق. حتى الأطفال يتركون اللعب في الطرقات ويتحلّقون منتظرين مائدة الأفطار حين يقرع أبو خضيّر صفيحته معلنًا موعد الأفطار. لم يكن في القرية مسجدًا، ولم أكن أعلم كيف يتسنى لأبي خضيّر معرفة موعد الأفطار، ولكنني كنت أعتقد أن لدى أبي خضيّر قدرات استثنائية لا يملكها غيره، فمن يربّي ثعابين في بستانه ويطعمها بيض الدجاج، لا يصعب عليه معرفة موعد الأفطار.

يوميًا كنت أسير ساعة المغرب حاملًا الصينية إلى باب قاسم الذي هو عبارة عن صفيحة معدنية صدئة مربوطة بأسلاك إلى جذع نخلة، ذلك الباب الذي

يتوسط خصًّا من القصب وسعف النخيل اليابس. أطرق الباب، يفتحه طالًا بقامته الطويلة، ووجهه الأسطوري الخالي من التعابير، وعضلاته الكبيرة. كنت أظنه بطلًا من أبطال القصص الخرافية، أو بحارًا غريبًا قذفته مياه المدّ، أو أنه أحد المقاتلين الأشدّاء الذين تخلّفوا عن جيوشهم الزاحفة بعناد إلى مكان قصيّ. كنت أراه أنسانًا مختلفًا يخفي خلف صمته وهمهاته غير المفهومة غالبا اسرارًا عجيبة.

رائحة التشريب، وأبخرة الشوربة الحارة التي تتصاعد من الأطباق لازلت أشمّها حتى هذه الساعة بعد أكثر من نصف قرن من الزمان. وسعادتي في تلك اللحظات لازلت أحسّها. كنت أنتظر رمضان سنة بعد أخرى لأسباب كثيرة، ومن بينها هذه اللحظات الجميلة.

الغبار المالح يتسلل إلى قدميّ فيختلط مع العرق المتصبب منهما، فيصير طينًا لزجًا زلقًا بين باطن قدميَّ والنعال البلاستيكي، فتصير خطواتي صعبة، ويبدأ قلقي على سلامة الأطباق يزداد. تختلُّ مشيتي وأتباطأ، ثم أنزع النعال لأنطلق حافي القدمين بخفّة وثبات صوب ذلك الباب غير قلق على نعالي الذي أتركه وراءي، فلا أحد في تلك الساعة خارج بيته يمكن أن يسرق نعالي الذي سأعود اليه بعد تسليم الصينية سالمة.

قاسم هذا رجل فقير، لديه بنت معاقة، فأطرافها الأربعة التوت جميعها عدة مرات وكأن قوة خارقة قد برمتها فبرزت إلى خارج جسمها نحو الخلف، كفّا يديها لا فائدة منهما، وأصابعها لا تستطيع مسك الأشياء. قدماها ملتويتان هما أيضًا،

فلا تستطيع تثبيتهما على الأرض للوقوف والمشي، بل هي تزحف بحركة لا تشبهها حركة كائن. ووجهها أنقلبت معالمه رأسًا على عقب. فعيناها سحبت بقوة إلى الأسفل، وأنفها شُدّ الى الأعلى، وفمها حرَّكتْه قوةٌ عجيبة عن مكانه المعتاد فصار إلى جهة من وجهها. ومع هذا كله فانني كنت أرى في ذلك الوجه المشوَّه ابتسامةً وفرحًا عندما كنت أقدّم صينية الأفطار لقاسم.

لا أعلم هل يتناول قاسم أفطاره الدسم والمختلف عما كانت تعدّه زوجته منفردًا، أم أنه يشارك أفراد عائلته به. وكم كنت أتمنى أن تعطيني أمي صينية أكبر تحتوي أطباقًا عدّة تكفي لأربعة أشخاص بدل هذه الوجبة التي تكفي بالكاد شخصًا واحدًا. كنت أخشى لو أنني بُحتُ بهذه الأفكار لأمي لضحكت عليَّ، أو لنفذت ما أطلب، ولكنها ستكلّف من هو أكبر مني حمل الصينية الكبيرة بدلًا عني، وسأحرم من هذه السعادة.

يقول الناس أن قاسم كان قد جُنَّ لأنه أقسم بالقرآن زورًا، فعاقبه الله بأن سلب عقله، وولدت له هذه المسخ. ولكنني سمعته يقول غير مرة أنه قد رأى الله وكلمّه. وسمعته غير مرة يدخل بحوار مبهم ظننته مع شبح حينها. وعندما كنت في العاشرة لم يكن بمقدوري أن اتأكد من شيء. كان كلُّ الأطفال يخافون من قاسم المجنون الغامض، ولكنني كنت لا أخافه، بل كنت متأكدًا أنه يحبني بشكل خاص.

الحكاية الثانية



الصورة (٣)

غُنوم

الحكاية الثانية

غُنوم

تبعد مدرستنا الابتدائية مسافة طويلة عن بيتنا. ربما هي أطول المسافات على الأطلاق. لا توجد مسافة تضاهيها طولًا حتى بعد أن مرَّ أكثر من نصف قرن على ذلك الزمان. إذ يتعين عليَّ أنا وأختي التي تكبرني عامين أن نمشي بمحاذاة نهرنا مسافة باتجاه الغرب، ثم ننعطف باتجاه الجنوب ونسير مسافة طويلة عبر درب ضيق تحيط به أسيجة البساتين المجاورة وبعض المنازل. حتى نصل إلى نهر ثان موازٍ إلى نهرنا، فننعطف مرة أخرى باتجاه الغرب ونسير مسافة طويلة على درب بمحاذاة حافة النهر. حتى نصل إلى مضخة الماء الكبيرة التي تضخ المياه لسقي الأراضي الزراعية الواسعة البعيدة. علينا أن نعبر الدرب الضيق الذي يفصل بين جدار غرفة المضخة وحوض الماء الكبير الذي يصب فيه أنبوب حديدي ضخم، حيث كبرت أشجار الورد التي زرعت على حافتي الساقية، لنصل إلى طريق تقع على جانبيه بيوت يقودنا بعد مسير طويل آخر مباشرة إلى المدرسة. اليوم حاولت ان أتتبع ذلك الطريق عبر تطبيق Google Earth، فهالني طوله، وعجبت كيف كنا نقطعه كل يوم جيئة وذهابا. الا أن المكان اليوم بدا خالٍ من النخيل، ومكتظًا بالمنازل.



الصورة (٤)

ليس طول الطريق مشكلتنا في تلك الأيام، بل هناك مشاكل أخرى أكثر تعقيدًا، وأشد خطورة. من بينها المواجهة المحتملة في كل لحظة مع الأشخاص الخطرين الكثيرين، وغُنوم أحدهم.

غُنوم أو غِنّوم أسم غريب، ليس له معنى غالبًا، وهو ما يزيدها غموضًا ويجعل منها أكثر الأمور ترويعًا. فهذا الأسم لا يعود للبشر قطعًا، بل هو ربما مشتق من أسماء الجنّ. وقد يعني شيئًا بلغة الشياطين والسعالي والطناطل الذين كانت تعجُّ بهم الحكايات في تلك الأرجاء ذلك الزمان.

غُنوم أمرأة مجنونة تتربص بالأطفال فتقعد لهم على الطريق إلى المدرسة. هي ليست كأي امرأة يمكن أن تتخيلها. فهي نحيلة إلى درجة مخيفة. ترتدي نفنوفًا باليًا منذ سنين لم يشاهدها أحدٌ ترتدي غيره، حتى أنه صار ممزقًا ومهلهلًا، حاسرة الرأس، شعرها الأبيض والأسود منفوش بشكل مريع. أما وجهها فهو مجرد أنف وعينان حمراوان وفم تبرز منه سن واحدة! علمًا أنني لم أرها يومًا، ولم ترها أختي، وكل تصوراتنا عنها مصدرها الحكايات عنها، فضلًا عن صورتها التي كثيرًا ما كانت تظهر لنا في الكوابيس.

وتذكر الحكايات أن سرعة غنوم عندما تركض وراء طفل عجيبة. إذ لا يمكن لأي شخص أن يفلت من قبضتها عندما تقرر العدوَ خلفه. تذكر الحكايات أن سيقان الأطفال غالبًا ما تفقد القدرة على العدو بمجرد مشاهدتهم لها من بعيد، فيتسمّروا في أماكنهم، ويتبولوا على أنفسهم من الخوف. ولست أدري على وجه

الدقة ما إذا كنت قد سمعت أو أنني حلمت بها وهي تطير. فقد كان هناك بين البساتين جوبة أو جوبتان. وهي ساحات واسعة جرداء لا ينبت فيها شجر، لانخفاض تربتها. كانت غُنوم تفضّلها على البساتين المزدحمة بالنخيل، فتطلق ساقيها للريح، ثم تبدأ بالطيران، ثم تظلّ هناك في عنان السماء تحوم مع الطيور الجارحة تراقب الأطفال من حيث لا يشعرون بوجودها. الحظ الحسن فقط هو الذي جعلنا لم نلتق بها وجها لوجه.

يقال أنها عادة لا تظهر في ساعة ذهاب التلاميذ إلى المدرسة صباحًا، وفي ساعة الانصراف ظهرًا. أما خلاف هاتين الساعتين فانها تجوب تلك الأرجاء بحثًا عن طفل ضال. ويقال أن ما يمنعها من الظهور في هاتين الساعتين هو أنها تكره ضجيج الأطفال الكثيرين الذي يسبب لها الصداع. فهي تفضّل مطاردة التلاميذ الخائفين الوحيدين ولا تحب الجموع. رغم أن ذلك لم يكن مؤكدًا دائمًا، فقد ذكرت الحكايات أن غُنومًا كانت قد ظهرت للتلاميذ أكثر من مرة بوقت مبكر بخلاف عادتها. ولم يكن أحد على يقين ما إذا كانت غُنوم تكسر قواعد مطارداتها للتلاميذ لسبب ما أو بشكل عشوائي.

أما ما يمكن أن تفعله غُنوم بطفل وحيد ضال فهو أمر مرعب حقًا. فقد كثرت الحكايات وتعددت الروايات. فبعضهم يقول أنها تفضّل أن تقذفه عاليًا كخرقة فتعلقه في رأس نخلة، وبعضهم كان يصرُّ على أنها كانت تدغدغه لتجبره على الضحك وهو خائف.



الصورة (٥)

لذلك كنا نحرص على الذهاب إلى المدرسة مبكرين، ونعود مسرعين، فلا يُلهنا أيُّ شيء آخر. ونجد في الاحتماء بالجماعة أمنًا وسلامًا. لكن ذلك الأمن تبدد مرة حين كاد الحظ العاثر أن يجعلنا وجهًا لوجه أمام غُنوم مباشرة.

ففي أحد أيام الشتاء كان الضباب الكثيف يخيم على الأرض ذلك الصباح. كنتُ أنا في الصف الأول وأختي في الصف الثالث. عندما خرجنا من بيتنا لم يكن الوضع سيئًا جدًا. ولكن الأمور سرعان ما تدهورت بشكل سريع بعد لحظات. فإنعدمت الرؤية تمامًا، ولم نعد نتمكن من تحديد موقعنا. كنا نسمع أصوات جموع التلاميذ وهي قريبة منا، ولكن تلك الأصوات بدأت تبتعد، ثم تلاشت. أحسسنا أننا فقدنا الاتجاه فلم نعد نعرف هل أننا كنا ذاهبين إلى المدرسة أم عائدين منها. غيرنا اتجاهنا أكثر من مرة. وازدادت كثافة الضباب. وصار الطريق أطول مما كان. وبدأنا نشعر بالتعب. ثم بدأنا بالبكاء. فقد أدركنا أننا قد تُهنا تمامًا. وحيدَين أنا وأختي نتخبط في غابة النخيل اللانهائية تلك والضباب الكثيف يلفّنا. كنا عندما نقترب من جذع نخلة نظنها غُنومًا، وما أن نتأكد أن ذلك الشبح ليس الا نخلة، حتى يبدأ شبحُ غُنوم ثانٍ بالاقتراب منا. كأنما قابلنا ألف غُنوم ذلك الصباح. وأصبح الوقوع في براثنها اليوم أمرًا محتومًا. فنحن الآن وحدنا وهو ما تفضله هي. وقد انقضت ساعة الصباح ووصل كلُّ التلاميذ إلى المدرسة على ما يبدو ولم يعد إلا نحن تائهَين. كنا نسمع عواء الكلاب في ذلك الصباح الكئيب. يبدو أن الكلاب هي الأخرى استغربت مشهد هذا الضباب الذي خيَّم على الأرض. وربما فزعت الكلاب أيضًا للمصير الذي ينتظرنا، فراحت تعوي. وجدنا أنفسنا نمرّ بالقرب من تلال تقف كأنها قباب غريبة أو هياكل مسحورة. لم نتذكر أن مثل

تلك الهياكل كانت موجودة في طريقنا المعتاد. أقتربنا من تلك التلال الغريبة، تلمسناها، كانت على ما يبدو أكوامًا من التبن، أو بيادر سنابل محصودة. ومررنا كذلك برجال غريبي الأطوار صامتين وهم يدفعون قطيعًا من الثيران المكممة الأفواه أمامهم! تمسكت بيد أختي، وتمسكت هي بيدي. ورحنا نتأهب للوقوع بين يدي غُنوم قريبًا، بل صرنا نتمنى أن تظهر لتخلصنا من هذا العذاب، هذا الإنتظار المرير.

ثم بدأ الضباب ينقشع رويدًا رويدًا، واستطعنا تحديد موقعنا، فاسرعنا باتجاه المدرسة التي وصلناها حين كان الدرس الأول يوشك على الانتهاء. ولم تظهر غُنوم ولم تُعلقنا على جذوع النخل.

التقيت بغُنوم صدفةً بعد ذلك بسنوات. وتحديدًا في شتاء عام ١٩٩١ عندما أفزعها قصف الطائرات. وجدتُها أمرأة عجوز خائفة تلوذ بجدار كما كنتُ أنا وكثيرون نلوذ بذلك الجدار. غُنوم لم تقتل طفلًا، ولم تكن مجنونة، بل كانت امرأة حزينة، وفقيرة. فقَدتْ إبنها الجندي في أحد الحروب القديمة. فبكته طويلًا حتى ظنَّ الناس أنها فقدت عقلها. فراحوا ينسجون حولها الحكايات. حتى أنهم حوروا اسمها وجعلوه غريبًا يناسب ما يشاع عنها من حكايات، أخرجوها من عالم البشر، ونفوها إلى عالم الجنّ. عرفتُ أن اسمها كان غنيمة بنت فالح الشرهان، ولديها أخت اسمها سليمة توفيت منذ زمن بعيد. لست أدري أن كانت غنيمة على قيد الحياة الآن، فقد أنقطعت أخبار ذلك المكان عني، وأغلب ظني أنها قد ماتت.

الحكاية الثالثة



الصورة (٦)

حمادووه

الحكاية الثالثة

حمادووه

تعاني كل القُرى وكل المدن من التغيرات المتسارعة. إلا أن القُرى التي تقع على أطراف المدينة المتوسعة تُعاني أكثر. تزحف المدينة باتجاهها فتلتهمها. يتآكل نسيجها العمراني، وتخترق جسمها شوارع جديدة. يتغير مجتمعها بشكل أسرع وأكثر إيلامًا.

هكذا هي المناوي، التي كانت تغفو على ضفة نهر الخورة. صارت جزءً من المدينة، تشدها الشوارع الواسعة، وتحاصرها الاستعمالات الجديدة... فنادق، مطاعم، قنصليات، مكاتب شركات، واسواق. ويكافح أهلها من أجل الإبقاء على علاقاتهم القديمة.

في غرفة من غرف بيت شرقي يتوسطه فناء مفتوح، من بيوت المناوي، وُلد أحمد لأم وأب من الأقارب. وكبر ببطء، تأخر في المشي، وتأخر في النطق، وتأخر في كلِّ مراحل نموه الطبيعية عن أقرانه. ورغم اهتمام أمه وأبيه به ومحاولاتهم علاجه إلا أن كل محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح. لم يلتحق أحمد أو حمادة بالمدرسة، ولم

يتعلم القراءة والكتابة، وبقيَّ بعيدًا عن مخالطة الأطفال. حمادووه، كما يحلو لأمه وأبيه، وأفراد عائلته الممتدة من الأجداد والأعمام والعمات والأخوال والخالات أن يطلقوا عليه كما هي عادتهم في تلك الأيام، أيقن أهله الذين أحاطوه بحب استثنائي أن بعقله عيب لا يمكن اصلاحه. فقبلوا بقسمتهم.

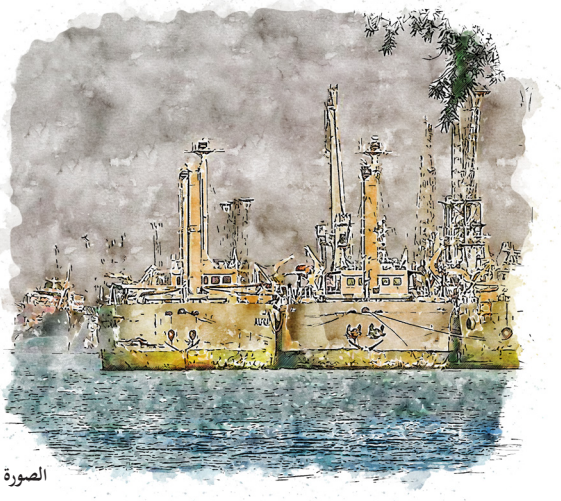


الصورة (٧)

كان حمادووه يقضي معظم أوقاته في غرفة أمه. كبر وهو يحملق بصورة كبيرة علقها أبوه على جدار الغرفة. صورة بالأبيض والأسود لشاب يرتدي زيا أبيضًا ويقف مبتسمًا، وتظهر وراءه في خلفية الصورة سفينة. فقد كان أبوه يعمل بحارًا.

امتلأت جدران الغرفة بالصور عندما لاحظ أبواه تعلق ابنهم بها، وبعضها كانت ملونة. وجد حمادووه في تلك الصور عالمه الجميل الذي لا يملّ العيش فيه. تخيل حمادووه أن والده رجل خارق، وآمن أنه مركز العالم كله وأيقن أن للأمر علاقة بهذه المراكب التي تظهر دائمًا في خلفية الصور.

عندما ذهبت العائلة للنزهة على ضفاف شط العرب ذات يوم، وتحديدًا في شارع الكورنيش الذي لا يبعد عن بيتهم كثيرًا، صُدم حمادووه. فها هي المراكب التي كانت تظهر في الصور، تبحر في الشط، كبيرة، وجميلة، وتتحرك، وتطلق صفيرًا. طووووووووط. ارتبك، واضطرب عقله، وتشتت احاسيسه. هذا عالم مُذهل، جميل وغريب ولا حدود له ومُتحرك. شغله هذا المشهد عن كل شيء. عندما عادوا إلى البيت بدت الصور المعلقة على الجدار باهتة وميتة وبلا معنى. حاول أن يبحث عن متعته القديمة في النظر إليها ولكنه فشل. فمزقها جميعًا.



الصورة (٨)

شيءٌ ما حصل في عقله. ثمة رابط لم يستطع حل شفرته. ثمة شيء ما يجمع أباه والمراكب الكبيرة الجميلة الملونة المتحركة التي تصدر أصواتًا. ولكن ما هو ذلك الشيء؟ لم يتوصل بعد لمعرفته.

لم تفارق خياله صورة الشط منذ ذلك الحين. استحوذ عليه مشهد السفن العملاقة وهي تندفع بثبات وهدوء وسط الشط ذهابًا وأيابًا. المشكلة العويصة التي واجهته هي أن المراكب كانت تظهر في خلفية الصورة، بينما يظهر أبوه مبتسمًا متأنقًا في مقدمة الصورة. لكن هذه المشاهد مُختلفة، فلا وجود لأبيه فيها. رغم أنه على يقين أن أباه هو الذي أوجد هذه المراكب، وهو الذي لونها، وهو الذي أطلقها. ولكن أين هو؟ سؤال ألحَّ عليه ولم يستطع أن يجد له جوابًا.

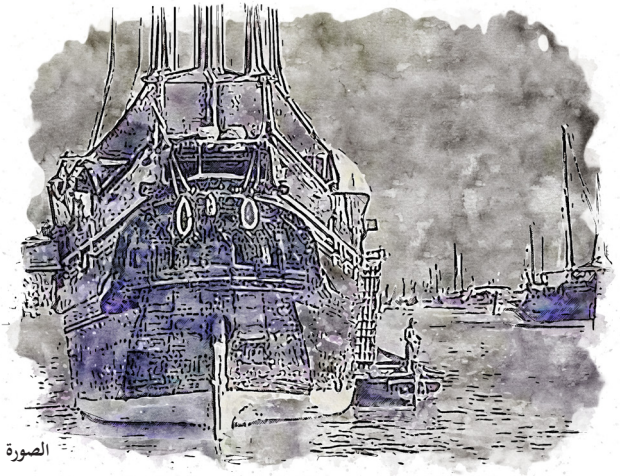
بعد أيام تطور الموقف بشكل خطير. فعند سماعه صوت أي مركب، وكثيرًا ما تطلق المراكب صفاراتها في الشط محذّرة بعضها بعضا أو محيّية بعضها بعضا، عندما يسمع حمادووه أصوات صفارات المراكب لا يستطيع منعَ نفسه من الانطلاق عدوا باتجاه الكورنيش وهو يصرخ، أبوي! أبوي! أبوي!. تختلط الصور والاحاسيس والأصوات داخل رأسه. وتتسارع دقات قلبه. وتنبعث صور مراكبه القديمة المختزنة في رأسه، وتظهر أمامها صورة أبيه مبتسمًا، فيهرع إلى الكورنيش علّه يجدها وقد أضحت حقيقة كما كان يحلم، وكما كان يجب أن تكون. ولكنه عندما يصل الكورنيش يتفاجأ، ويزداد حزنًا، ويتملكه التعبُ، فالمراكب وحدها تجوب مياه الشط، ولا وجود لأبيه.

وُجد حمادووه غيرَ مرةٍ غائبًا عن الوعي على رصيف الكورنيش، وعندما نُقل إلى المستشفى قال الأطباء لأمه أنه يعاني من الصرع.

تمنت أمه أن تتوقف المراكب عن اطلاق صفاراتها. ودعت الله أن تتوقف كليًا

عن الحركة. فبالاضافة إلى خوفها على ابنها من الوقوع في نوبة صرع مفاجئة وهو بعيد عنها، فإنها كانت تخشى عليه من تنمر المراهقين الذين لا يرحمون. فحالما يشاهدونه منطلقًا بسرعة لا يلوي على شيء، مجتازًا الشوارع غير آبه بالسيارات، متجهًا صوب شارع الكورنيش وهو يصرخ أبوي! أبوي!، مركب أبوي! مركب أبوي! حتى يبدأوا بمطاردته، والسخرية منه، وقذفه بالحصى. ما يزيد من توتره وهيجانه.

ذات يوم وُجد حمادووه غريقًا في مياه شط العرب، فقد هاجمته نوبة الصرع وهو يقف على حافة الكورنيش محملقًا بالمراكب الهائلة الحجم وهي تشقّ الأمواج، كان يحدّق فيها على أمل أن يجد أباه واقفًا أمام السفن الكبيرة مبتسمًا كعادته، مرتديًا زي البحّارة الأبيض الجميل. خُيّل أليه للحظة أنه رآه، قبل أن تهوي خطوته الأخيرة به في الماء.



الصورة (٩)

الحكاية الرابعة



الصورة (١٠)

سامي

الحكاية الرابعة

سامي

الحياة العامة ضرورة اجتماعية لابد منها. يحتاج إليها الناس في القرى والمدن. وتزيد حاجتهم إليها في المدن. فالهدف من إرتياد الأفراد للأسواق والمقاهي والحمامات، وتسكعهم في الساحات والحدائق العامة هو الاختلاط بالناس والاحساس بوجودهم، وتبادل المعرفة معهم. وعندما تجعل الظروف من الإجتماع أمرًا ممنوعًا، أو محفوفًا بالمخاطر، لا يتخلى الناسُ عن تلك الحاجة، بل يستعيضون عنها ببدائل أخرى. بدائل يكون الإجتماع فيها عرضيًا وليس أساسيًا. مثل باصات النقل العام وغيرها من وسائل النقل الأخرى.

ففي الباصات تستطيع أن تسمع همس الناس. وفي الكراجات عند مواقف إنتظار الباص تستطيع أن تتعرف على هموم وآمال الناس. وفي الباصات تستطيع أن تشعر بحب المتحابين، وأحباط المحرومين، وحقد الحاقدين، وحسد الحاسدين. تستطيع أن تشعر بوجود الناس.

خطوط النقل العام في مدينة البصرة كما في المدن الأخرى لها بداية ونهاية.

ولها خط سير معلوم. في بدايتها ينتظر الناس قدوم الحافلة ليركبوا فيها، وغالبًا ما تتواجد الحافلة بإنتظارهم، لا بل يتواجد عدد كبير من الحافلات. كل منها ينتظر دوره. فيركب الناس في الحافلة التي عليها الدور وينتظرون حتى تمتليء بالركاب لتبدأ انطلاقها صوب وجهتها. وغالبًا ما يطول الإنتظار، فيستغل المتسولون تلك الظروف السانحة، فيجولون على الركاب المنتظرين يسألونهم ألحافًا. ويطوف أيضًا الباعة الجائلون، بـ (حّب... سجائر... علك)، وبكل ما يخطر لك على بال.

كل ذلك نعرفه جميعًا، ونستمتع به، أو قد ننزعج منه، لكن الذي لا يعرفه الكثيرون هو ما كان يدور في ساحة باصات خط تموز. تنطلق باصات ذلك الخط من العشار قرب فندق حمدان متجهة إلى البصرة القديمة عبر شارع ١٤ تموز لتنتهي عند جامع الكواز. ومن هناك تستدير مباشرة لتعود عبر الشارع نفسه لتصل إلى الساحة التي انطلقت منها. ليس لنقطة نهايتها ساحة، بل تستدير حول جامع الكوّاز وتبدأ بجمع الركّاب من أمام محطة بنزين عِزّ الدين، ومن أمام شركة الأسماك، ومقبرة محمد جواد، ثم تقاطع أبو شعير ثم ساحة الطاسة حيث يتقاطع شارع السعدي مع شارع تموز، ومن أمام مدرسة الراهبات حتى تقاطع شارع ١٤ تموز مع شارع الاستقلال حيث تستدير لتقطع شارع الاستقلال وإنتهاءً بالثانوية المركزية وقاعة عُتبة بن غزوان، حين ينزل آخر راكب قبل أن تستدير لتدخل في الفروع الجانبية لتصل إلى الساحة مرة أخرى في بريهة قرب فندق حمدان.

الشيء المميز في ذلك الخط هو وجود سامي المجنون في الساحة يوميًا، وفي كل الأوقات حتى أنه صار جزءً من الساحة، فاعتاد الناس على وجوده، بل أنهم

صاروا يتطلعون إلى لقاءه كلما راموا استعمال ذلك الخط. وبعضهم كان يتفادى الوقوع في حبائله، وبعضهم يتعمد التواجد أمامه ليكون عرضة لسؤاله. سامي رجل يحاول أن يكون أنيقًا. فهو يرتدي بدلة رسمية كاملة بما في ذلك القميص والرباط والسترة، والصديري (اليلك)، والبنطال، والحذاء. صحيح أن كل ملابسه قديمة ومتسخة بعض الشيء ومجعدة. والملفت أنه كان يرتدي معطفًا أيضًا، ويضع غالبًا وردة حمراء على صدره. ولتكتمل القيافة فأنه كان يضع على رأسه قبعة. وفوق ذلك كله، كان سامي يحمل كتابًا، أو كارتونًا بهيئة كتاب إن توخينا الدقة. كانت تلك هي قيافة سامي الدائمة بغض النظر عن فصول السنة وتقلبات مناخها. ففي الشتاء البارد، وفي الصيف القائظ، كانت تلك قيافة سامي لا تتبدل.



الصورة (١١)

وجه سامي تعلوه إبتسامة دائمًا. إبتسامة خفيفة محيرة. فأنت لا تعرف تمامًا ما إذا كان سامي يُبادلك الود بهذه الإبتسامة، أم أنه يسخر منك، أم أنه يسخر من الأوضاع التي آلت إليها البلاد، أم أنها مجرد إبتسامة بلهاء من رجل أبله.

وسؤال سامي المجنون سؤال واحد لا غير. سؤال يُكرر طرحه على كل من يلتقيهم فردًا فردًا، يومًا بعد يوم دون ملل ولا كلل. وهو بقدر بساطته وسذاجته فهو سؤال حيَّر الناس ودوَّخهم كثيرًا. فهو يطلُّ برأسه في الباص غير الممتلىء ركابًا، يتطلع في الوجوه المرتبكة الحيرى، يتفرس فيها برهة من الزمن تبدو طويلة جدًا، ويختار أحد الركاب، ويتوجه إليه بسؤاله الكبير والإبتسامة الماكرة تعلو وجهه: شتقول تصير لو ماتصير؟

يشعر الراكب بالحرج، ويرتبك ويتصبب عرقًا وتختلط لديه المشاعر. فبالرغم من أن الجميع يعرفون هذا السؤال، فهو سؤال وحيد ومتكرر وليس لسامي سؤال غيره، إلا أنه يسبب كل ذلك التوتر، فتحمّر الوجوه، وتتزداد سرعة ضربات القلوب، وتضطرب الحركات. ترى ما عسى المسكين أن يجيب؟ الإجابة على ذلك السؤال الكبير المحيّر بسيطة جدًا. فاما أن تقول تصير، أو أنك تقول لن تصير.

لا تكمن المشكلة هنا، بل في تعقيب سامي على جوابك. والويل لك من سخرية سامي. فهو يُضحك جميع الركاب عليك، ويجعلك عرضة للسخرية، تتمنى ساعتها لو أنك لم تأت إلى هذه الساحة، ولم تركب هذا الباص، ولم تكن أمام سامي الماكر وجها لوجه في هذه الساعة المشئومة. ربما تحاول أن تداري حرجك،

فتضحك مع الضاحكين، وتتصنّع أنك تعمدت أثارة سامي. ولكنك لا تستطيع أن تكذب على نفسك، فأنت تعلم ما حلَّ بك. فأنت هناك تجلس على مقعد ذلك الباص وتتمنى لو أن الأرض تنشق وتبتلعك.

فاذا قلت (تصير)، سيقول: (شوفوا هذا الغشيم، يقول تصير، لو أنها تصير لصارت، شبيك أنت مخبل؟).أما اذا قلت له (ما تصير) فيردّ عليك مباشرة بلا تردد: (هههه.. أيا غشيم يا أثول! يقول ما تصير! أنت نائم؟ عمي صارت ودارت، أنت مطفي؟).

وفي كل الأحوال يعجُّ الباص بالضحك، لا تعلم هل يضحكون عليك، أم على سامي، أم على السؤال، أم على الوضع السوريالي كله؟

جلس خلفي ذات مرة إثنان ممن كان يبدو عليهما أنهما مثقفان. وعندما امتلأ الباص ركابًا وتحرك، وانتهت حفلة الهرج والمرج التي سببها لنا سامي المجنون، سمعتهما يهمسان بحديث طويل وجدت نفسي مجبرًا على استراق السمع إليه.

قال الأول: تعلم أن السؤال في ظاهره صحيح، ولكن القصة تكمن في ما يمكن أن يكون عليه القصد. فما يصير أو لا يصير هو حدث ما، حدث في قصد السائل، ومن غير الممكن أن يكون هو عينه الذي يقصده المجيب، وهنا يحصل الاختلاف. فالحوار إذن عن شيئن مختلفين.

قال الثاني: أوافقك الرأي، ولكنني أعتقد أن السؤال المطروح لم يكن سؤالًا. ذلك لأن السؤال هو رسالة السائل للمسئول، ويجب أن تكون الرسالة متكاملة الأركان. فإذا غاب عن الرسالة القصد منها فقد انتفت عن كونها رسالة وصارت لغوا.

قال الأول: القضية التي تصير أو لا تصير برأيي والتي يمكن أن يقصدها سامي هي القضية التي يصعب التصريح بها في الأماكن العامة. وعندما نكون أنا وأنت على بينة من تلك القضية التي لا يمكن التصريح بها، فأنها ستكون معلومة لي ولك أيضًا فلا داعي إذن لذكرها. وبهذا فالسؤال مكتمل الأركان.

قال الثاني: وما هي تلك القضية التي يصعب التصريح بها برأيك؟ قد تكون خيانة تعرض لها سامي؟ أو خديعة أوقعت به؟ أو جريمة ارتكبها فأطاحت بعقله؟

قال الأول: لا أخي، القضية التي يتحدث عنها سامي هي قضية الثورة! الثورة على الفساد، الثورة على الظلم، الثورة على الأوضاع. والموقف من الثورة إذن قضية عميقة يحاول سامي تفجيرها وتذكير الناس بها. وهي قضية سياسية. وهي فعلًا قد صارت، أي أن الثورة قد حصلت بدليل أن مقدماتها قد حدثت، وبداياتها واضحة لكل ذي بصيرة. ومجنون أو غشيم من يتصور أن الأوضاع ستدوم على ما هي عليه.

قال الثاني: أما أن تكون الثورة لم تحصل، فهي مسألة صحيحة برأيي. فحصول

الثورة يعني زوال الأوضاع التي ثارت من أجلها الثورة. وطالما أن الأوضاع لا زالت كما هي عليه قبل حصول الثورة فهذا يعني أن الثورة لم تحصل بعد. فثمة فرق بيّن يا صديقي بين حصول الشيء وإمكان حصوله. فأنت ولدت عندما خرجت من رحم أمك، لكنك لم تولد عندما كنت جنينا هناك على الرغم من إمكان تحقق الولادة.

قال الأول: نعم صديقي، فسامي يريد من الناس أن ينشغلوا بالثورة وصيرورتها حتى وأن كانوا مشغولين بأمورهم اليومية البسيطة كالإنتقال من مكان إلى آخر. أنا أحترم هذا السامي وأحبه.

قال الثاني: ولكن ثمة شيء آخر لم تنتبه أليه... نازل....نازل. توقف الباص. ثم نزلا قبل وصول الباص لنهاية الخط. أما أنا فبقيت مذهولًا. هل حقًا أن سامي هذا كان يقصد كل ذلك. ورحت أفكر عميقًا فيما قالاه للتو، وتخيلت سامي وقد تحول إلى حكيم. حتى أنني أشتقت إليه، وددت أن أراه مرة أخرى. أراه من جديد بعد أن تكوَّن لديَّ احتمال أن يكون سامي المجنون هذا رجل يريد أن يبقي في عقول الناس فكرة الثورة متقدة حيّة. كنت مستغرقًا بأفكاري حين صرخ بي السائق: (شني قصتك عمي؟ شو ما نزلت؟ لو تنزل لو تدفع كروة مال رجعة، مال تغشم روحك ما تعبر عليَّ).

الحكاية الخامسة



الصورة (١٢)

سيد عون

الحكاية الخامسة

سيد عون

أُشتهر للمدة من الخمسينات حتى الثمانينات من القرن الماضي، عرفه كلُّ من عاش في البصرة تلك السنين. هو رجلٌ متوسط القامة، أقرب إلى القصر، ممتليء قليلًا، وجهه أحمر، وعيناه زرقاوان. يرتدي ملابس لا تستطيع تمييزها فهي خليط من سراويل وقمصان، ودشداشة بيضاء، لفَّ على خصره حزامًا من قماش أخضر، ورفع شَليلَهُ وثبتَّه في الحزام، فظهر سرواله الذي يُغطّي ساقيه، ملابسه نظيفة، حافي القدمين، يضع على رأسه كوفيةً خضراء. لا يمكنك أن ترى وجهه إلا عندما يجلس. وهو نادرًا ما كان يجلس. قليلون جداً هم الذين رأوه جالسًا يستريح. صورته العالقة في الأذهان لدى أكثر الذين يتذكرونه هو ذلك الرجل المشّاء. رأسه كله مختفٍ داخل كوار كبير، صرّة مكورة من القماش يبلغ قطرها ذراعين، لا يعلم أحدٌ على وجه الدقة ما الذي كانت تحتويه، يقول بعضهم أن بها صاية[1] له يعتزُّ بها، وسراويل وغيارات أخرى، يحملها فوق رأسه، حتى صار ذلك الكوار مضربًا للأمثال. فإذا كان الشيء كبيرًا، أو ملازمًا لصاحبه، أو عزيزًا، قيل عنه كأنه كوار سيد عون.

[1] الصاية لباس عراقي فاخر

يمشي سيد عون دائمًا. فهو يعبر القرى حاملًا كواره الأثير فوق رأسه، ومتكئاً على عصاه، يضلع في مشيته، ربما كان ينوء به حمله الثقيل. هو موجود في كل مكان. في قرى الجراحي والزوين وخضابوه ومعاوية وحمرينان والمشان وبني سكين والبدران والحلاف. مرةً يسلك الطريق العام، حيث تسير سيارات الحمل الكبيرة والباصات. ومرةً يسلك الدرب الوسطاني القديم حيث تسير قطعان البقر والغنم في رواحها ومجيئها. ومرة يتبعُ نياسمَ قديمة لا يعرفها إلا هو، فيباغت العشّاق المتخفين بين أسيجة الطين والخوص وهم متلبسين بخلواتهم السريّة التي خططوا لاقتناصها قبل أن يفسد سيد عون عليهم صفاءها.



الصورة (١٣)

يشاهده عمال تصليح السفن في الداكير، حين يمرُّ يتوقفون عن تزييت المحركات العملاقة، ودهان أبدان السفن، وفكّ البراغي الصدئة الضخمة من أماكنها العتيقة. ويرفع عمال تحميل السوس على ظهور السفن الراسية في نهر الرباط أيديهم تحية له، ويتوقفون عن عملهم برهة قبل أن ينهرهم مراقب العمل الحازم. أما نساءُ خمسة ميل اللواتيَ يتذمرن وهنَّ يفرغن مياه المطر من بيوتهن إلى الشارع كل صباح، فيتفاءلن بمروره. الفنانون المشغولون بنقاش محتدم في حديقة نادي الفنون قرب تمثال أسد بابل غالبًا ينسون ما كانوا يتحدثون عنه بعد مروره بهم. ويعرفه تجّار الجملة الذين يفتحون خاناتهم فجرًا في سوق الخضارة. ويشاهده عمال البناء والحمّالون والجنود الذين يتناولون فطورهم فجرًا حول عربات الفطور الحار في أمِّ البروم قبل أن يبدأ مراقبو البلدية الكسالى بتنفيذ القانون أثناء دوامهم الصباحي. تعرفه الطوّاشات اللواتي تفوحُ منهن رائحة الرشوش والخضيرة وهنَّ يهززن خصورهن الملفوفة بالعباءات حين يلتقيهن وهنَّ عائدات من مكابس التمور. وتضحك المعيديات اللواتي كنَّ يحملن في الصباح الباكر صواني القيمر والروب وقفَف البُنّي الذي ما زال يلبط تحت دثار من القماش المبلل.

أما أفراد الشرطة الذين كانوا يدخِّنون شتى أنواع السجائر دون إكتراث عند مدخل جسر العسافية الحديدي الأخضر، وأمام مدخل الميناء في نمرة أربعة، فغالبًا ما كانوا مشغولين عنه بإحصاء سجائرهم. ويؤخّر أبو شاكر سائق العبّارة التي كانت تقلّ الطلبة والعمال والنساء بين الكرمة والنجيبية لحظة إنطلاقها إنتظارًا لوصوله. ويعرفه مسئولو عربات ضبط السير في القطارات دائمة الحركة قرب محطة القطار في المعقل إذ يسارعون بتنفيذ البروتوكول المعمول به بدقة متناهية عند

مروره، فيرفعون الأعلام الحمراء بسياق مضبوط، ويطلقون الصفارات، ويبطئون حركة القطارات كي يمر السيد بسلام. وخط سير سيد عون مدروس بعناية.

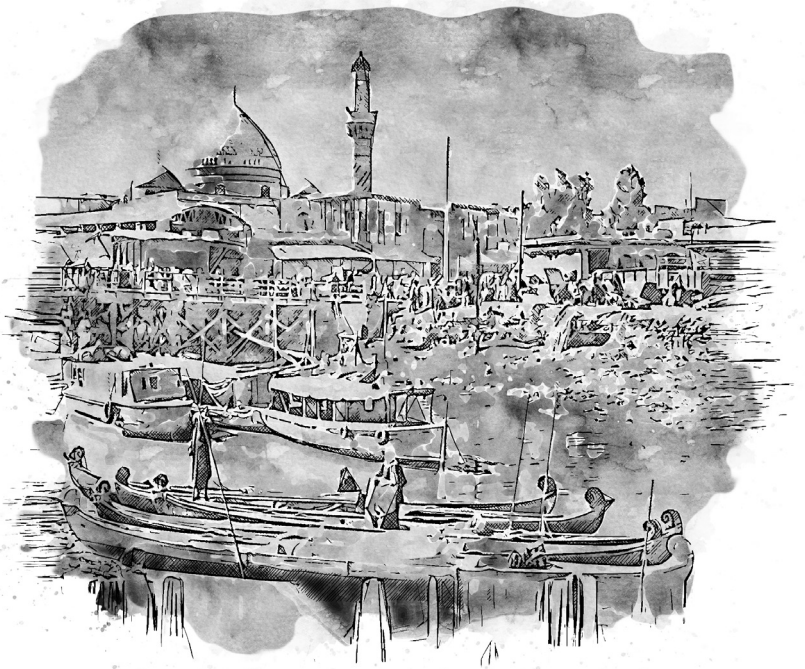
يقصد سيد عون المضائف، يبيت فيها، ويأكل، ويستريح. يعرف سيد عون كل آداب الأكل والنظافة الشخصية والحوار مع مضيفيه أغلب الأوقات. إذ أنه أحيانًا يغضب ويشتطّ. وحين يشتطّ تتدفق من فمه الكلمات تباعًا بشكلٍ يصعب معه فهمها.



الصورة (١٤)

يخافه الأطفال. ويهدد البالغون صغارهم بسيد عون. من دون أن يعرف أحدٌ ما الذي يمكن لسيد عون عمله، وكيف يمكنه أن يسبب الأذى لهم. ولكن من يدري، فهذا الشبحُ الغريبُ الأطوار، والاستثنائيُّ بكلِّ ما للكلمة من معنى، قد يكون قادرًا على إيذاء الناس بطريقة إستثنائية. ولكنه كان مسالمًا جدًا.

ومع خوف الأطفال من سيد عون، ومع تهديد الكبار لهم به، إلا أن الجميع يجلُّونه ويحترمونه. ربما لأنه صار جزءً من المشهد العام. فمن يدري كيف تكون الدروبُ لو لم يكن سيد عون يسلكها جيئة وذهابًا. ويخاف الناس ليس من ضرباته أو هجماته، ولكنهم يخشون من أن يُسبب لهم الأذى، فهو في النهاية سيّد، وللسيد شارة! ومع هذا فإن بعض المراهقين يتنمّرون عليه، ويستفزونه ويقذفونه بالحجارة، كما يفعلون ذلك عادة مع كل مجنون. ولا يحصل ذلك مع سيد عون في كل مكان. إذ أن البالغين يمنعون المراهقين من القيام بمثل ذلك التنمر معه.



الصورة (١٥)

ومن الطرائف التي تروى عنه أنه كان في الصينخ يقطع الطريق بين مضيفين من مضائف كرمة علي، وبينما هو ماشٍ في هذه الفضوة بدأ مراهقون بالتنمر عليه. ضايقوه، وأغضبوه وأخرجوه عن طوره. طفح به الكيل وغضب غضبًا شديدًا، وقف أمام صريفة جميلة الأعرابية، وأسقط كواره أرضًا، ورفع كوفيته الخضراء عاليًا، ونظر إلى السماء، وطلب من الله بأعلى صوته أن ينتقم من رئيس البلاد، فلا يصبح عليه صباح! تندَّر الناسُ ساعتها وضحكوا على شطط السيد كثيرًا. فما دخل رئيس الدولة بسوء أخلاق المراهقين! ولكنها شطحة من شطحات سيد عون عندما يغضب. الأمر الذي أذهلَ الناسَ صبيحة اليوم التالي، هو خبرُ إنقلابٍ أطاحَ بالحكومة برمتها!

أغلب الناس في تلك الأرجاء وفي ذلك الزمان بسطاء وطيبون. ومن أخطر أعراض الطيبة عندهم أنهم يتقبلون ظاهر الأشياء. فإذا كان سيد عون مشاءً ويحمل كواره على رأسه، فهذا يكفي. لن يثيروا أسئلة ولن يحاولوا معرفة لماذا؟ وكيف؟ وأين؟ بل تقبلوا الأمر على ما هو عليه.

كنت في الصف السادس الإعدادي أحضّر لامتحان البكلوريا. كنت متعبًا من الدراسة والحفظ، حتى أنني خشيت على صحتي من السهر والقلق والخوف والترقب. خرجت من بيتنا فوجدته جالسًا عند الباب. كان يضع كواره أرضًا، ورأيتُ وجهَه الأحمرَ النوراني، وعينيه الزرقاوين الجميلتين. طلب مني ماءً. أحضرت له الماء، وشرب. كنتُ أنظر إلى هذا الكائن الأسطوري عن قرب. وقع نظري على ساقيه، وعجبت من مشهد الدوالي المتورمة فيهما. منظر مؤلم لم أرَ بحياتي شيئًا

مشابهًا له. نظرت إلى كواره، خفت أن أساله. شرب الماء، ونهض، حمل كوراه، والتقط عصاه، وواصل طريقه.

في تلك اللحظة تولَّد لديَّ إحساسٌ أنه قد تمنى لي الخير من قلبه. وتولَّد لدي أيضًا إحساسٌ غريبٌ وهو أن سيد عون كان يجول في تلك الأرجاء ليُشبع منها ناظريه، وأنه كان يعلم أن أمورًا متلاحقة سوف تحصل عمّا قريب ستغير جمالَ هذه الأرجاء وتسلب منها سلامَها إلى الأبد. وهذا ما حصل.



الصورة (١٦)

الحكاية السادسة



الصورة (١٧)

شهاب

الحكاية السادسة

شهاب

كتب الصحفي المبتدئ سعيد سوادي في صحيفة محلية قبل مدة تحقيقًا عن شهاب المجنون جاء فيه ما يلي:

يعرفه كل سكنة قرية أم الغزلان. ويكرهونه أيضًا. فمنظره مقزز. دشداشته لا يعلم أحد ما كان لونها بالأساس. فهي قذرة بلون السخام. شعر رأسه اختلط مع شعر وجهه، حافي القدمين، يضايق المارّة طالبًا منهم سيجارة (گاره! گاره!) بعضهم يعطيه سيجارة، وبعضهم يهرب منه. وبعضهم يعطيه علبة سجائر. وأحيانًا يهاجم المارة باستخدام ما تقع عليه يده من حجارة أو كسر طابوق!. وجوده أصبح لا يطاق. فالأطفال يخافونه، ويتعذر على النساء المرور بهذا الجزء من الشارع دون مرافق. حين يكون لديه سجائر يجلس هادئًا في الشارع يدخّن. فهو يدخّن باستمرار دون توقف. يناشد سكان القرية الحكومة المحلية لإيجاد حل لهذه المشكلة، أو تخصيص راتب له.

أثار هذا التقرير فضولي لذلك اتصلت بأحد معارفي في القرية للاستفسار عن حالة هذا الرجل فأجابني:

شهيّب المجنون. لا أحد يعلم ما الذي يجب عمله معه لتتخلص قرية أم الغزلان من ازعاجه. ولكن يقرّ الجميع أن الأيام وحدها كفيلة بذلك. يقول كبار السن أنه لم يكن كذلك قبل أن تموت أمه. هو الآن ليس له عائلة، يعيش تقريبًا في الشارع، حتى أن البيت الذي تركه والداه لم يعد له وجود. يأكل مما يتصدق به عليه الناس.

ذهبت بنفسي للاطلاع على وضعه، والتقيت بالحاج خلف في داره. كان جوابه مقتضبًا جدًا إذ قال: شهاب وعائلته حديثو العهد بقريتنا فقد كانوا يسكنون قديما في باب الشمس قبل أن ينتقلوا للعيش في أم الغزلان. ولم يزد على ذلك شيئًا. أحسست أنه لا يريد الخوض في هذا الموضوع، فودّعته وخرجت بعد أن شربت عنده الشاي.

توجهت بعد ذلك إلى بيت الاستاذ علاء مدرس اللغة العربية. فهو شاعر، ومهتم بتاريخ المنطقة، فضلًا عن أنه يسكن القرية أيضًا. قلت في نفسي لن يطفئ ظمأي سواه. وجدته غارقًا بين كتبه، إلا أنه تفرغ لأسئلتي واسترسل قائلًا:

تقع قرية باب الشمس على الجهة الشرقية من شط العرب شمال البصرة. قرية وادعة وخصبة وغنية ومسالمة. يخترقها نهر الباب فيسقي بساتينها، وهي تحتوي على شاطيء عريض يقع ضمن حوض الشط، شاطيء يُغمر بالمياه أيام الفيضان،

ولكن أهل باب الشمس يزرعونه بالخضروات. وإلى الشرق يمتد الحماد حتى الحدود الإيرانية. حيث يُمكن للناس جني الفطر البري والكمأ ورشاد البر، ويمكنهم رعي مواشيهم، فضلًا عن زراعة الحنطة والشعير. الهدوء والسكينة هنا في أبهى صورهما، والسلام سيّد، والبيئة بأنقى حالاتها.

في تلك القرية كان أبو شهاب الفلّاح البسيط يعيش مع زوجته وهي بنت عمه، وإبنه الوحيد شهاب. يزرع في الشاطي الكرفس والريحان والبربين والباميا والبطيخ والرقّي ويزرع البادنجان والطماطة، وكل تلك الخضروات تنبت وتنتج بأفضل ما يكون عليه الإنتاج. فليس هناك أكثر خصوبة من تربة شواطئ باب الشمس التي تتجدد تربتها بالغرين الأحمر كل عام، وليس هناك أفضل من ماء شط العرب، وليس هناك أفضل من هواء باب الشمس وشمسها، وليس هناك أفضل من رعاية أبي شهاب لمزروعاته. فهو يعاملها كما يعامل الفنان لوحته، وكما يعامل النحات قطعته. لم يكتف أبو شهاب بذلك، بل أنه استطاع أن ينقل ذلك الشغف العجيب بالأرض إلى إبنه المُعاق ذهنيًا، أو كما يقولون المتخلف عقليًا، شهاب. فبشكل عجيب انتقلت رهافة التعامل مع الأرض من الأب إلى إبنه الضعيف. شهاب لا يستطيع النطق السليم، بل بالكاد يمكنه أن يقول مقطعًا مشابهًا لصوت الكلمة، وأبوه وأمه يفهمانه.

عشق شهاب الطين بشكل غريب. وتعلم كيف يسيطر على حركة ماء السقي في المشاريب والمشارات، وهي سواقي ومساحات صغيرة ضحلة للزراعة. فيغلق التي امتلأت بالماء بكتلة من الطين، ويفتح الأخرى فينساب الماء بالاتجاه الذي

يريد، ثم ما يلبث أن يوجّه الماء إلى اتجاه آخر. يعزف شهاب مقطوعة موسيقية لا يسمعها أحدٌ غيره باستخدام الماء والطين. ويستمتع بذلك أيما استمتاع. والفضل يعود لأبيه الذي علّمه كل ذلك، والذي زرع بقلبه حب الأرض: الماء والطين والزرع. ومن ذا الذي لا يقع بحب باب الشمس وخضرتها، جنة الله في أرضه.

تعلم شهاب كيف يصنع من الطين طيورًا وغزلانًا وخرافًا وثيرانًا فيجفّفها تحت أشعة الشمس، ليلهو بها في الغد. يعجب الجميع من دقة أشكال تلك الحيوانات الطينية الصغيرة، ويعجب الجميع من قدرة هذا الولد على صنع مثل تلك التماثيل الصغيرة وهو الذي لا يستطيع النطق بكلمة! لم يكتفِ شهاب بعمل الحيوانات بل أنه وبشكل عجيب تعلم كيف يعمل من الطين صفّارات، فيجففها، وينفخ فيها بعد أن تجف فتصدر صفيرًا. وتعلم كيف يصنع الماصول أو الناي أيضًا من الطين، وحين يجربّه الآخرون يجدون أنه يصدر أنغامًا جميلة. من علمه ذلك؟ لا أحد يعلم. ولكنه الشغف بجماليات المادة، والإندماج بها من جهة، وقدرات الإنسان الخلّاقة التي لا حد لها من جهة أخرى، سيما إذا توفر لها المناخ اللازم من الحب والسلام. نعم، الحب والسلام. فليس النطق وحده دليل على قدرة الإنسان.

وتعلم شهاب كيف يعمل لنفسه لفافة تبغ، فصار لديه صرّة صغيرة يضعها في جيبه، تحتوي على تتن، ودفتر أوراق السجائر الصغير، وشخاطة. يجلس شهاب في ظل نخلة في أوقات الاستراحة، وبعد أن يأكل مع أبيه الخبز واللبن والتمر، فيلف لنفسه سيجارة، ويجلس ليدخن بشغف ومتعة. ليس هذا فحسب، بل صار لشهاب اهتمامًا بالأغاني، كان يحب الإستماع إليها. وصار عنده راديو صغير،



الصورة (١٨)

يسميه (دقدوق)، ويعني صندوق. وتعلم بالفطرة كيف يفتحه ويصلحه إذا ما تعطل. متعته في الدنيا صرّة التتن وصندوق الأغاني خاصته، فضلًا عن العزف على الماء والطين.

لام أبو شهاب نفسه كثيرًا لأنه لم يُعلّم شهاب صنعة آباءه وأجداده القديمة، الحياكة. ولكنه كان يؤجل ذلك يومًا بعد آخر. كان كل يوم ينظر إلى نول الحياكة الذي تركه هو الآخر منذ زمن بعيد، إذ لم تعد مهنة الحياكة تدرّ ما يكفي من المال للمعيشة، ويهمّ باعطاء شهاب الدرس الأول، ولكنه يؤجل ذلك.

بيد أن لباب الشمس حظ عاثر أيضًا مثلما كان لها حظٌ حسن. فها هي التحولات المتسارعة تدنو منها، وتسلب منها هدوءها وسلامها إلى الأبد. فقد أنشئ قبالتها على الجانب الغربي للشط في بداية السبعينات وحشٌ هائل من الحديد، وحشٌ ينفث دخانًا وسمومًا في الهواء والماء ليل نهار. كان ذلك معمل الورق. ثم أصبحت موقعًا مهمًا أبان الحرب العراقية الإيرانية. فكثرت فيها معسكرات الجيش، وأشتعل أفقها بالإنفجارات، وخيَّم على سمائها غبارُ المعارك التي استمرت سنينًا. واضطرب حالها كما اضطرب حال البلاد كلها، إلا أن للقرب من الجبهة شأن آخر لا يعرفه إلا من عاشه.

أقترب دويُّ المدافع يومًا بعد يوم. وبدأ الخوف يستوطن القرية شيئًا فشيئًا، وغادر السلام إلى غير رجعة. صار حصادُ الخضروات أمرًا صعبًا، وتسويقها أكثرَ صعوبة. فالتغيرات كانت تحصل بالساعات، وساد شعورٌ بعدم اليقين. واضطربت

أحوال شهاب الذي صار يضع رأسه بين يديه ويبكي.

قرر أبو شهاب مغادرة القرية إلى الجانب الغربي من الشط، ذلك الجانب الأكثر أمنًا والأبعد عن ساحات المعارك، حيث يسكن أخوته. حمَّل أثاثه البسيط، ونول الحياكة ببلم، وعبر الشط. سكن بغرفة بسيطة، ومن اليوم الأول أجلس شهاب أمام النول، وبدأ اعطاءه الدرس الأول، آملا أن شهابًا سيتعلم فهو ولد شاطر.

لم يستطع شهاب تعلم الحياكة، ولم يتذوق حركة هذه الآلة الغبية الرتيبة. هي ليست كتدفق المياه في المسارب، وليست كليونة الطين في الأصابع. رفض شهاب الجلوس أمام النول. واشتاقت روحه لرؤية الحقول الخضراء الهادئة على ضفاف الشط. رفض شهاب رفضًا قاطعًا إستبدال الماء والطين بالخيوط، وتوتر واضطرب، وفضّل الخروج إلى الشارع. يستمتع بتدخين سجائره، ذلك الشيء الوحيد الذي بقيَّ له من جنته القديمة تلك. البعض يقول أن الوقت قد فات على شهاب لتعلم شيء جديد. كان لا يستطيع الكلام بسهولة، ولكنه أصبح كما ترى مجنونًا بعد وفاة أمه، وازدادت حالته بعد وفاة أبيه. فقد شهاب عالمه الجميل إلى الأبد. وتحول إلى ما هو عليه الآن. كان يمكن أن يكون إنسانًا آخر لولا تلك القسوة وذلك العنف.

عندما خرجت من بيت الاستاذ علاء حزينًا، رأيت شهاب خلفي وهو يردد گاره! گاره! رجلٌ يناهز السبعين من العمر، بقلب طفل.

الحكاية السابعة



الصورة (١٩)

عبود

الحكاية السابعة

عبود

محطة قطار بضائع نظران هي آخر محطة تقع على خط القطار المتري، ولكنها أهم محطة. فهي تقع على طريق بغداد القديم الذي كان يبدأ من باب بغداد قرب جسر الغربان في نظران. من هذا الباب كانت تتصل البصرة بالعراق وبغداد بريّا. القادم إلى البصرة القديمة بواسطة القطار ينفذ إلى قلب المدينة القديمة مباشرة، محلة الباشا، السوق، السيف، قصر السيد طالب النقيب، مقام الخضر، المدرسة الثانوية، دار الحكومة في السيمر والمحكمة. لم يعد الركاب يستخدمون محطة قطار نظران لذلك تم تحويلها الى محطة بضائع، يتم نقل البضائع من وإلى البصرة القديمة عبرها. وأحيانًا كان الزوار يسافرون إلى العتبات المقدسة على متن القطار من هذه المحطة مستصحبين معهم كل ما يلزمهم من أدوات وقدور وحطب وخراف، فتضج بالحركة على غير عادتها، ثم ما تلبث أن تعود إلى الهدوء والرتابة المعهودة. محطة قطار بضائع نظران لم تكن مكانًا يعود للحكومة، بل كانت مكانًا عامًا مألوفًا للجميع.

يمر القطار المغادر محطة بضائع نظران والتي تعرف أحيانًا بمعمل المسامير الذي يقع قربها عبر بساتين النخيل الكثيفة لينحرف عند كوت الحجاج نحو الشرق مارًا بالحكيمية، والمكينة والخربطلية والجبيلة وانتهاءً بالمعقل. ومن المكينة كان هناك خط آخر يتفرع مارًا بالجسر الأحمر ومنتهيًا بالمناوي. لم أر هذا الخط ولكنني سمعت عنه. موقع المكينة كان نقطة مهمة لإلتقاء خطوط سكة القطار وتفرعاتها.

في نهاية الستينات من القرن الماضي كنت في المرحلة الإبتدائية في ذلك الوقت حين كانت محطة قطار بضائع نظران تضم دارًا كبيرة كنا نسكن فيها لأن والدي كان مديرًا للمحطة. وكان هناك أيضًا «طرمبة السبيل»، وهي حنفية عامة ملحقة بالمحطة ومفتوحة للجميع. قطر الحنفية كبير جدًا ربما يبلغ ضعف قطر حنفيات المنازل، وشكلها البرونزي المتين ملائم للاستخدام العام. يتدفق منها ماء عذب بضغط كبير يكفي لملء سطل الماء بلحظة. بُنيت على الحنفية غرفةٌ جدرانها شبه شفافة من الطابوق، حيث تركت فتحات مربعة بين كل طابوقة وأخرى، تسمح تلك الفتحات بنفاذ ضوء النهار لأرضية الغرفة، وتسمح بالتهوية كذلك لمنع تعفن الغرفة بفعل الرطوبة المستمرة من جراء طرطشة ماء الحنفية. ويبدو أن طرمبة السبيل هذه جزء حيوي من المحطة، ليس لأنها تقدم الماء للجمهور فحسب، ولكن لأن القطار كان يحتاج للتزود بالماء، حيث كان يعمل بقوة البخار.

أرضية غرفة «طرمبة السبيل» من الكونكرت الصقيل تحتوي على مسرب للمياه، وهو ساقية صغيرة ذات ميل يسمح للماء الفائض بالانحدار من تحت الجدار ليصب في البساتين المجاورة. لم يكن للمحطة سياج، بل كانت مفتوحة من

جميع الجهات. لذلك كان يفد اليها كلُّ من يحتاج للتزود بالماء، وخاصة نساءُ العمال الوقتيين الذين كانوا يفدون إلى البصرة للعمل في موسم التمور. وأحيانًا كان السكان القريبون من المحطة يتزودون بالماء الساخن من مرجل القطار مباشرة، وخاصة ليلة الخميس! كانت المحطة والقطار والناس مثل عائلة واحدة كبيرة.

بيتنا الملحق بالمحطة كان مسيجًا بسياج حديدي تتسلقه نباتات الآس وشجيرات الجهنمية التي تتفجر بالوانها الأرجوانية صيفًا. كنا نلعب في هذا المكان الجميل الهاديء لا يقلقنا شيء سوى عبود المجنون، الذي اعتاد السير على سكة القطار مشيًا قادمًا من أماكن بعيدة كالحكيمية. أماكن لا يمكننا تصور أن يأتي منها أنسان مشيًا على الأقدام لبعدها. وحده عبود المجنون بأمكانه فعل ذلك. كان والدي مدير المحطة يكلّف مأمور عربة ضبط السير باصطحابي كل خميس من نظران لأنزالي قرب بيت جدي في الحكيمية حيث أقضي عطلة نهاية الأسبوع هناك. كنت أستقل عربة ضبط السير الجميلة ذات اللون الأخضر والمزودة بمقاعد، ويسير بنا القطار برحلة طويلة مارًا بالبساتين والقرى والسباخ عابرًا فوق جسور كثيرة ومحاذيًا لأنابيب نفط، ومقتربًا من مواقع شركة نفط البصرة، ومتقاطعًا مع شوارع كثيرة، مارًا بالقرب من تجمعات أكواخ العمال المهاجرين. رحلة طويلة جدًا كنت أشعر بالتعب والنعاس خلالها، ويصعب عليَّ الاحتفاظ بعينيّ مفتوحتين. ورغم أنني معتاد على هدير عجلات القطار يوميًا، إذ يمر القطار على بعد ثلاثة أمتار من بيتنا الملحق بالمحطة، ولكن صوت ورتابة عجلات القطار وهي تقطع كل تلك المسافة الشاسعة وأنا راكب في عربة ضبط السير له تأثير آخر. كنت أعجب كيف يمكن لعبود المجنون أن يقطع كل تلك المسافة من الحكيمية إلى نظران مشيًا على الأقدام

يوميًا. من الممكن أن ينزل عبود ليأكل ويشرب عند حقول الفلاحين المنتشرة على جانبي السكة. ومن المحتمل أن يتوغل مرات عدة داخل المدينة القديمة، فيصل السوق، أو يدخل أحد الجوامع أو الحسينيات أو الكنائس ليأكل ويرتاح، إلا أن ذلك غير مؤكد. المؤكد بالنسبة لنا نحن الذين نعيش حول محطة قطار نظران هو أن عبود كان يصل يوميًا إلى نهاية رحلته اليومية إلى غرفة طرمبة السبيل، يغتسل، ثم يقفل راجعًا من حيث أتى.



الصورة (٢٠)

عبود المجنون رجل مرعب ربما في الثلاثين من عمره، قوي البنية، طويل القامة، ضخم الجسم، حليق الرأس دائمًا، أسنانه غير منتظمة، يرتدي دشداشة قديمة ممزقة، ليس بها أزرار، لذلك كان عاري الصدر طوال الوقت. لا يحمل عبود في جيبه سوى علبة معدنية يملأها مسحوق السويكا، إذ كان دائمًا يضع بعضه في فمه. ولعبود كفّ عجيبة، فهي كبيرة بشكل ملفت للنظر، رغم أننا كنا نراه من بعيد ولا نجرؤ على الاقتراب منه، إلا أن كفه حتى من تلك المسافة كانت تبدو كبيرة. ولعبود سمعة واسعة لأنه مجنون خطير، لا يتوانى عن ضرب كل من يضايقه بطابوقة كاملة، أو بنصف طابوقة. ضربات عبود المجنون مسددة دائمًا، فهو لا يخطئ التصويب أبدًا. فإذا ما قرر ضربك فلن يجديك هربًا، ولا احتماءً، ولن تفلح في تلافي ضربته مهما حاولت. فطابوقته بالغةٌ رأسك لا محالة، نعم رأسك بالتحديد، وليس أيَّ جزء آخر من جسمك، ولابد أن تسبح بدمك. بات هذا الأمر مسلمًا به لدى الجميع. وهناك أمثلة كثيرة تُروى كدليل قاطع على خطورة عبود وعدوانيته. فهو مثلًا كان قد كسر قارورة سلمان أبو الشربت. كان سلمان يجوب تلك الأنحاء دافعًا عربته التي تحمل قارورتين بيضاويتي الشكل تسع كل منهما غالونين من الشربت، ولكل منهما حنفية صغيرة في قعرها. كان سلمان يملأ أحداهما بشربت أصفر بلون وطعم البرتقال، والأخرى بشربت أسود بلون وطعم الزبيب. ذات يوم هجم عبود بكل عنف وشراسة على عربة سلمان المسكين وقذف أحدى قارورتيه بعلبة السويكا المعدنية خاصته فهشمها تمامًا، واندلق الشربت وتبدى. عبود كان يمثل لنا شيئين متناقضين في الوقت عينه. فهو مرعب، يسيطر علينا خوف دائم من احتمال لقائه على حين غفلة عندما نكون خارج البيت. وهو يثير حماستنا أيضا خاصة بوجود الفتيات اللواتي يأتين لملء أوعيتهن

بالماء. كنا نتجمع لنكوّن فريقًا كبيرًا من الصبيان يُشجّع بعضُنا بعضًا، فنهاجمه من بعيد باستخدام الألفاظ النابية التي تثيره، أو بقذفه بالحصى. كان يتغاضى عن أفعالنا، ولكنه أخيرًا كان يشتاط، فيندفع نحونا مزبدًا مرعدًا، هائجًا مخيفًا، فنتفرّق مبتعدين عنه. لكنه لا يستطيع الابتعاد كثيرًا عن السكة، فيعود اليها.



الصورة (٢١)

كنا نلعب أنا وأصدقائي في حديقة بيتنا، أو في الساحات المحيطة بمحطة قطار نظران، لا يزعجُنا شيءٌ حتى يأتِ عبود المجنون، فيحلُّ الخوفُ والترقبُ والهلع بيننا. ومن الأعمال المشينة التي اعتاد عبود فعلها كل يوم من أيام الصيف القائظ الاغتسال في غرفة طرمبة السبيل. لم تكن مشينة تمامًا، بل كانت مسلية أيضًا. كان يدخل تلك الغرفة، وينزع دشداشته، ولم يكن يلبس شيئا آخرًا تحت دشداشته، يتعرى تمامًا، وينحني تحت الحنفية الكبيرة، ويبدأ باستخدام الصابون الذي غالبا ما يتركه عمال المحطة قرب الحنفية لاستخدام العامة. ويطول مكوثُه هناك. مما يضطر

الفتيات اللواتي يأتين لملء أوعيتهن بالماء إلى الانتظار. ويعلو ضحكهن وصراخهن وهنَّ يتلصصن عليه من بعيد وهو عارٍ تغطي جسمه القويَّ والممتلىء بالعضلات رغوة صابون كثيفة. ولم نكن نحن الصغار لنجرؤ على الاقتراب من فتحات جدار الغرفة المخرَّم لنرَ ما كان يدور في تلك الغرفة مما يثير حماس الفتيات. ذلك لأننا كنا نخاف أشدَّ الخوف من غضب عبود ومن تسديداته المميتة.



الصورة (٢٢)

ملاحظات:

في الواقع ليست المسافة بين نظران والحكيمية كبيرة كما تم وصفه، لكن الأبعاد بتصور الأطفال شيء آخر.

هجرت محطة قطار بضائع نظران عندما تم التخلي عن القطار المتري في نهاية الستينات، وأصبحت أثرًا بعد عين، هي ومعمل المسامير، والبساتين ولم يعد لكل تلك البيئات من وجود يذكر.

في نهاية الستينات من القرن العشرين اشتكى أولياء الأمور من أن أطفالهم في تلك المناطق كانوا يعانون الخوف، وبعضهم يتبول في فراشه، وظهرت عليهم علامات الهزال، بسبب خوفهم من عبود المجنون. لذلك تم تشكيل لجنة لدراسة الموضوع، وتم اتخاذ قرار بالقاء القبض على عبود وترحيله للعلاج في مستشفى الأمراض العقلية في بغداد. وهناك انقطعت أخباره. ذكر أحد المترددين على المستشفى لزيارة قريب له نزيل هناك أن عبود ساءت صحته بعد وصوله إلى المستشفى مباشرة ثم مات.

لم ينتبه أحد إلى أن عبود كان قد ضرب قارورة الشربت بعلبة السويكا وهي الشيء الوحيد الذي يملكه وليس طابوقة التقطها من الشارع. بعض النسوة كن قد لمن أبو الشربت لأنه لم يعط عبود العطشان كأسًا من الشربت. وبدلًا عن ذلك عنّفه وغلط عليه وأثار جنونه.

ادعى شخص رفض الكشف عن اسمه أنه عثر على اضبارة تخصّ قضية عبود المجنون، ادعى أنها تتضمن معلومات مهمة منها:–

تقرير للشرطة أرفق بملف لجنة التحقيق المذكورة أعلاه تضمن ما يلي: (عدا عن كسره لقارورة الشربت العائدة إلى سلمان أبو الشربت لم يتم توثيق أية حادثة ضرب قام بها عبود).

تقرير آخر لعضو تربوي من أعضاء اللجنة ذكر ما يلي: (كان الأطفال يتنمرون على عبود بشكل لا يمكن قبوله، ولكن أي من الكبار لم يكن ليتصدى لمنع هذا التنمر).

تقرير آخر مرفق قدمه طبيب عضو اللجنة أعلاه، جاء فيه ما يلي: (يعاني المدعو عبود من مرض عقلي فهو مغرم بالقطار، ويرى في القطار جماليات لا يراها في غيره، فألوانه الجميلة، وسرعته، واستقامة سيره المنتظم على سكة، وصوت نفيره، وانتظام حركته، ودقة مواعيده، كل تلك الصفات ملكت لبَّ عبود، فعشق القطار وتوحَّد معه حتى ظنَّ أنه صار قطارًا).

الحكاية الثامنة



الصورة (٢٣)

فطنة

الحكاية الثامنة

فطنة

كتب الصحفي المبتديء سعيد سوادي تقريرًا مطولًا لرئيس تحرير الجريدة المحلية التي يعمل فيها هذا نصه:

السيد رئيس التحرير المحترم
الموضوع حكاية «فطنة» المجنونة
محلة السيف

محلة السيف وقلبها القطانة، كانت في الستينات من القرن الماضي محلة هادئة وجميلة. يخترقها شارعٌ كان في العهد السابق شريان الحركة والاقتصاد الرئيس للمدينة. إلا أنه أصبح في الستينات شارعًا سكنيًا بسيطًا بعد تحول الحركة والتجارة والنشاط إلى أماكن أخرى. بيوتها الشناشيلية الجميلة ذات الطابقين والفناء الوسطي المفتوح مرتفعة قليلًا عن مستوى منسوب الشارع، الأمر الذي يتطلب وجود درجة أو درجتين للصعود إلى مدخل كل دار. هذه الدرجات كانت تشهد جلسات النساء وحواراتهن في أوقات الضحى والعصر من كل يوم. لم يكن الجو الحار في

أيام الصيف يمنع ذلك النشاط، فعرض الشارع قليل، هو بالأحرى مجرد زقاق، عرضه القليل يوفر الظل. أبواب البيوت الخشبية منقوشة بعناية، وشبابيك الطابق الأرضي المشيد من الطابوق قليلة. أما الطابق الأول الخشبي فهو بحق لوحات مذهلة من فن النجارة الدقيق والجميل.



الصورة (٢٤)

في الستينات تهب ريح منعشة في شارع القطانه طيلة أيام السنة. ريح خفيفة باردة صيفًا، ودافئة في الشتاء. وتعبق روائح الأطعمة الشهية التي تعدُّها الأمهات في البيوت ضحىً، من الباميا والبرياني وشيخ محشي والدولمة والشبزي والمكشت والصبور المشوي. أما في العصر فتعبق في الشارع العطور الفاخرة حين يأخذ الجميع حمامًا منعشًا بعد قيلولة الظهيرة، وحين تلبس البنات فساتين النزهة المسائية مثل موديل البرميل والكيمونا وتنورات الميني جيب والكركش والكسرات، ويضعن عطورهن المفضلة من ماركات پاترا، وفلور دامور، وفيجي الفاخرة، التي تمتزج مع رائحة الطابوق الفرشي المرشوش بالماء.

تتبادل النساء الزيارات فيما بينهن في ذلك الوقت، وكذلك تفعل الصبايا. أما الرجال الكبار فلا يفارقون المقهى حيث يشربون الشاي والنومي ويتبادلون الأحاديث، ويلعبون الطاولي والدومنة. ويغادر الشباب عادة المحلة متأنقين إلى أماكن أخرى لقضاء الوقت. أقرب وجهاتهم عند المقاهي المنتشرة في محلة السيمر القريبة، وأبعدها حين يركبون التورنات الملونة الجميلة ذات المقاعد الجلدية الواسعة من نوع شوفرليه التي كانت تصطف بانتظار ركابها مقابل تانكي الماء من الجهة الأخرى. وبمبلغ عشرة فلوس يمكنهم الانتقال إلى العشار حيث تكون الحياة المدنية أكثر انفتاحًا. أما الأطفال فلا يغادرون الشارع بل يكتفون بشراء قرص النعناع والحلقوم من دكان الملا ملاذهم الأول والأخير، ومصدر سعادتهم الغامرة.



الصورة (٢٥)

بداية التحري

تتردد على بيوت السيف وشارع القطانة دائمًا أمرأة مجنونة يعرفها الجميع. كانت في الأربعين من عمرها في ذلك الوقت أسمها فطنة. حين عرف بعض أصدقائي عن نيتي للكتابة عن قصص المجانين، طلبوا مني أن أكتب عن فطنة. ولكن المعلومات عنها بدت شحيحة للغاية. وتَطَلَبَ الأمرُ مني جهدًا لجمعها من مصادر عدة.

فقد قادتني تحرياتي إلى ثلاثة مصادر ممن كانوا على صلة وثيقة بتلك المرأة. وهم كل من الست خالدة علي معلمة متقاعدة (١٩٤٠) كانت عائلتها تسكن في محلة السيف وهي الآن تقيم في ألمانيا. وسبب اختياري لها لتكون أحد مصادري هو أنها كانت قد تعرضت لمضايقات من قبل السلطات بعد اختفاء فطنة، حيث ذهبت للبحث عنها كما ذكر لي الكثيرون، وكادت تتعرض للاعتقال بسبب ذلك. والست رازقية فيصل (١٩٤٥)، ربة بيت كان أهلها يسكنون محلة السيف أيضًا، تسكن الآن في بغداد. بحثت عن هذه السيدة لأن كثيرين ذكروا لي أن هذه العائلة كانت كثيرًا ما تؤي «فطنة»، واعتقدت أنها ربما تحتفظ بمعلومات مهمة عنها. والدكتور عادل عبد الحميد (١٩٤٣)، طبيب اختصاص أمراض نفسية، مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية. بحثت عنه لأنني عرفت من بعض السكان أنه كان قد أجرى بحثًا عن «فطنة» عندما كان طالبًا في كلية الطب.

لم يكن التوصل إلى هذه المصادر سهلًا، ولكن بمساعدة الأصدقاء والمعارف تمكنت من التواصل مع هؤلاء الثلاثة، بعد أن حصلت على أرقام هواتفهم، وكانت رواياتهم كما مبين أدناه:

رواية الست خالدة علي

كان بيتنا يتوسط شارع القطانة، قرب دكان الملا، وكانت «فطنة» تأتي إلى الشارع دائمًا. كانت في الأربعين من العمر، فارعة الطول، بشرتها تميل إلى السمرة، ولا أعلم بالضبط ما إذا كانت هي سمراء أم أن ذلك كان من أثر أشعة الشمس، حيث تقضي طيلة الوقت هائمة على وجهها تجول في الشوارع. وجهها تعلوه التجاعيد، وأسنانها مهدمة. كانت تأتي لتطلب الطعام. ترتدي نفنوفًا نسائيًّا، بل أكثر من نفنوف بعضها فوق بعض. لا ترتدي عباءة، بل كانت تضع شال (شيلة) تلفه على رأسها. وكانت حافية القدمين. الشيء المميز بفطنة إنها كانت تضع كل ما تصل إليه يدها من الأساور والخواتم والسلاسل المعدنية الزائفة (الشبه). فكانت تخرخش حين تمشي بسبب تلك الاكسسوارات الرخيصة. وكانت إذا ما وجدت سوارًا ملتويًا أو سلسلة ملقاة على الأرض تهرع لالتقاطها وتعديلها ولبسها.

حين يقدم لها الطعام كانت تسرع بالتهامه، فتلوث وجهها وتبعثره على ملابسها. وغالبًا ما كانت تخبئ الطعام بأكياس ورقية تحت ملابسها، إذ لم تكن الأكياس البلاستيكية قد عُرفت آنذاك. وكانت تُكثر من شكواها من أناس سرقوا مصوغاتها الذهبية. فقد كانت تردد (باقوني، باقوني، الظلّام سرقوني).

كنا من الشباب اليساري ذي التطلعات الثورية في ذلك الزمان، لذا كنا نتعاطف معها، وننظر إليها باعتبارها ضحية من ضحايا الطبقية. فقد عرفنا أنها كانت عاملة في مكبس للتمور، مقتصدة للغاية، تدَّخِر أجورها الزهيدة وتشتري بها مصوغات ذهبية وفضية من سوق الذهب الذي يقع على مقربة من محلتنا. ولكن لصوصًا سطوا عليها ليلًا وسرقوا كلَّ ما ادخرته، ما أدى إلى ذهاب عقلها. عندما اختفت فجأة، لم يلاحظ أحدٌ ذلك بسبب كثرة وتزاحم الأحداث والمتغيرات السياسية التي كانت تعصف بالبلاد. إلا أنني افتقدتها، لذلك ذهبتُ للسؤال عنها. لم نكن نعلم بالضبط أين كانت تقيم؛ لذلك كان بحثي عشوائيًا شمل أكثر من منطقة مثل الصبخة الكبيرة والصغيرة ونظران والهارونية وكوت الحجاج، ما أثار إنتباه رجال الأمن فاعتقلوني لساعتين وحققوا معي قبل أن يطلقوا سراحي. فأوقفت بحثي عنها دون أن أحصل على جواب.

رواية الست رازقية فيصل

كان بيتنا في شارع القطانة، وكانت أمي تحب عمل الخير. فكانت تقدم المساعدات لكل محتاج. ومن بين اولئك المتسولين كانت «فطنة». هي ليست مجنونة كما كانت أمي تقول، بل هي تتصنع الجنون لتكسب عطف الناس وشفقتهم. وبذريعة الجنون تتمكن من طرق أبواب الناس في محلتنا والمحلات الأخرى أيضًا لطلب الطعام والملابس والمال وكل ما يمكن أن تجود به أيديهم. أمي اكتشفت ذلك بنفسها. إذ كانت تنظر الى وجه «فطنة» من ثقب الباب، فكانت ملامح وجهها تختلف تمامًا قبل فتح الباب. وبعد أن يُفتح الباب تتقمص وجها

آخرًا لتكسب تعاطف الناس. تأكدت أنا من ذلك بنفسي. ورغم ذلك فلم تتغير مساعدتنا لها. أمي كانت تقول دائمًا (سوي زين وذب بالشط). ليست «فطنة» وحدها في ذلك، بل الكثير من المتسولين، وحتى هذه الأيام، وفي كل مكان. ولكن ما العمل؟ فقد أُمرنا أن نُكرم السائل والمسكين. أما سكنة محلة السيف في ذلك الزمان فقد كانوا طيبين جدًا، وأعتقد أنه لم يعد لأمثالهم وجود في هذا الزمان؛ لذلك تكاثر عند أبوابهم المتسولون. كانت علاقتنا بها عاديةً. كانت أمي تُحسن إليها أكثر من باقي الجيران.

رواية الدكتور عادل عبد الحميد

وردتني رسالة ألكترونية من شاب يدعي أنه ابن الدكتور عادل عبد الحميد هذا نصُّها.

الأخ سعيد سوادي المحترم

يؤسفني ابلاغك أن والدي لا يستطيع بسبب وضعه الصحي أن يكتب لك بنفسه؛ لذلك كلَّفني بكتابة هذه الرسالة لك. وكلَّفني بإبلاغك عن مدى سعادته لأنك ذكَّرته بتلك السنين الخوالي. أما بخصوص قصة المريضة فاطنة، فقد ذكر والدي ما يلي:

من خلال البحث الذي قمتُ به على تلك الحالة، وجدت أنها حالة مركبة جدا. فهي تُظهر أعراضَ الكرب التالي للصدمة (PTSD)، ومتلازمة (RTS)، التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت، كما إنها تعاني من إضطراب الهوية التفارقي (DID)، مع أعراض أخرى. الحالة رغم أنها قديمة جدًا، ولكنها لازالت واضحة في ذاكرتي. وقد بحثت في أوراقي القديمة، والتي لحسن الحظ لازلت أحتفظ بها لحد الآن، فعثرت على التقرير الذي قدمته لأساتذتي حينها، كما عثرت على العديد من الأوليات التي جمعتها. وقد بدا لي وقتها أن فاطنة جبير قد تعرضت إلى صدمة، تلك الصدمة كانت سببًا في حصول تغيرات هورمونية مفاجئة أثرت على عمل جهازها العصبي. لاحظت عند فاطنة أيضًا حالة رفض أو إنكار للواقع، فهي تحاول إلغاء الحادثة التي مرت بها وسببت لها الصدمة. ولعدم وجود مستشفيات في ذلك الوقت، ولعدم وجود عائلة تتابع علاج الحالة فقد وجدت طريقها إلى الشارع للأسف. إنتهى كلام والدي.

وستجد في المرفق ملفا كاملًا، فقد قمت بتصوير الوثائق الخاصة بالحالة كما طلب مني أبي ذلك.

وتقبلوا احترامي

سعيد عادل عبد الحميد

ميشيغان ٤ نيسان ٢٠١٨

ملف قديم

عكفت على قراءة ذلك الملف القديم. كانت تلك الملاحظات مكتوبة باللغة الانكليزية وتحتوي مصطلحات طبية ما صعَّبَ عليَّ فهمها بسهولة. كانت تضم مقابلات غير مُنقَّحة لجلسات عدة مع المريضة، تضمنت أسئلة وأجوبة. وعجبت لكون تلك الملاحظات تحتوي معلومات غاية في الأهمية، ولكن يبدو أن الدكتور لم يعرها أهمية. ركزتُ عليها محاولًا استنطاقها. وكانت النتيجة أن أعدتُ صياغتها بهيئة ثلاث روايات ترويها «فطنة» المجنونة عن نفسها، وكما يلي:

رواية فاطنة جبير الأولى

أحب أن أذهب يوميًا من بيتنا الواقع في البساتين إلى محلة السيف لقضاء الوقت والنزهة. ويعجبني أن أرتدي أفضل ما لدي من الملابس. ففتيات محلة الگطانة لديهن ذوق بالملابس جيد. وأنا أحب أن أجاريهن. كما أنني أشعر بالسعادة حين أمر على صديقاتي في محلة السيف. لأنني أحب أن يرين جمالي الذي يضفي عليه أرتدائي للحلي خاصتي بريقًا. أعرف أنهن أيضًا يتمنين أن يكون لهن جمال كجمالي. لذلك يحرصن على استقبالي والحديث معي. وبالواقع ليس فيهن من هي أجمل مني، فأنا طويلة، ووجهي أجمل من وجوههن، وجسمي أكثر نضارة من أجسامهن. وحيث أنني مقبلة على الزواج فأنني كنت أحاول أن اتعلم من العائلات الراقية في محلة السيف كيف أكون سيدة راقية. فأنا لم أتعلم في المدارس، وأهلي بسطاء، إلا أن خطيبي محسن ثويني ينتمي إلى طبقة راقية، وأريد أن أتعلم كي أكون عند حسن

ظنه. (كانت تبدو سعيدة ومعتدة بنفسها وتتحدث كأنها ملكة جمال العالم! كما دوَّن الدكتور في ملاحظاته).



الصورة (٢٦)

رواية فاطنة جبير الثانية

كنتُ أعملُ في مكبس التمور ليل نهار. وجمعتُ مبلغاً من المال، كنتُ أُحبُ شراء الذهب. وفعلًا إشتريت مصوغاتٍ كثيرةً. كان بيتنا قرب مكبس التمور، لذلك كنت آخذُ صندوقًا أو صندوقين من التمر كل ليلة إلى البيت لاخراج النوى. ولذلك كان أجري مضاعفًا. كنت أعمل ليل نهار. كان محسن ثويني أحد الشباب الذين يترددون على المكبس، إدّعى أنه من أقارب صاحب المكبس، وأنه غنيٌّ، وقد عرض عليَّ الزواج. بعد وفاة أمي وأبي أصبحت وحيدةً. في الأربعينات كانت الأوضاع بسبب الحرب مضطربة جدًا. في ليلة من الليالي طرق محسن ثويني بابي، عندما فتحت له الباب، دخل هو و دخل معه إثنان من أصدقائه. سرقوا مصوغاتي كلَّها، وعذبوني. النذل الحقير الجبان، كان يخطط لذلك منذ زمن ولكنني كنت غبية. (كانت تجهش بالبكاء مرات عديدة وتتوتر حسب ما دوَّن الدكتور في الملاحظات).

رواية فاطنة جبير الثالثة

عندما سرق محسن ثويني الحقير ذهبي وخرج تلك الليلة، تبعته صباح اليوم التالي. ولكن لحسن حظي ولأن الذهب خاصتي حلال جمعته من عملي الشريف، فقد وجدت أن الذهب قد سقط منه وتبعثر في الشارع دون أن يشعر. هرعت لجمعه مرة أخرى. كلما أمشي أجد سوارًا أو قلادةً أو محبسًا من مصوغاتي في الأرض، الحمد لله، فعلًا فالحلال لا يضيع. (كانت تنتابها موجات من الضحك كما دوَّن الدكتور في ملاحظاته).



الصورة (٢٧)

خاتمة

يبدو أن محلة السيف قد فقدت الكثير من معالمها المعمارية، كما فقدت كلَّ أهلها وسكانها القدامى تقريبًا. وتغيرت الحياة بشكل لا يصدق في أزقتها وبيوتها. ليست محلة السيف وحدها قد واجهت هذا المصير البائس، بل كل محلات البصرة، بل كل مدن العرق. ويبدو أن حقيقة المسكينة «فطنة» أو فاطنة جبير كما تسميها أوراق الدكتور عادل عبد الحميد قد فقدت هي الأخرى فيما فقد.

للتفضل بالاطلاع وأعلامي في حال وجدتم أن الموضوع يستحق التنقيح وإعادة كتابته بشكل تحقيق صحفي..... مع التقدير

سعيد سوادي

البصرة ١٥ تموز ٢٠١٩

الحكاية التاسعة



الصورة (٢٨)

سرور

الحكاية التاسعة

سرور

مشهد من العام ٢٠٠٦

يجلس أبو طلال الرجل البالغ من العمر نحو سبعين سنة في مكتبه (مكتب النزاهة لبيع وشراء الأراضي والدور)، كما تشير القطعة التي وضعت على سقف المحل والتي تجاوزت أبعادها أبعاد واجهة المحل، يجلس كل يوم وهو يرتدي دشداشته البيضاء التي تستر جسما مترهلا. علق على ثلاثة جدران من مكتبه خرائط ملونه بطريقة بدائية لمحلات سكنية، توضح شبكة طرق وقطع أراضي عليها أرقام. ينظر أبو طلال شزرا من خلال زجاج واجهة مكتبه الذي يقع على الشارع العام الرابط بين تقاطع شارع ١٤ تموز مع شارع الاستقلال من جهة وجسر الخورة من جهة أخرى. يراقب أبو طلال أعمال البناء المتسارعة على قطعة الأرض الواسعة في الجهة المقابلة للمكتب، والتي تبلغ مساحتها دونما تقريبا. هي ليست قبالته تماما بل هي في العمق، ولكنه يستطيع رؤيتها لعدم وجود أبنية تحجب الرؤية. تقف ثلاث سيارات صفراء ضخمة لنقل الخرسانة الجاهزة وأحواضها تدور. ثمة آلية ضخمة تشرب الخرسانة السائلة من العربات ثم تتقيأها من خلال خرطومها

الطويل كأنها وحش أسطوري في الطابق الثاني من مبنى قيد الانشاء على قطعة الأرض الكبيرة ، حيث يقوم العمال بتوزيعها على أجزاء القالب الخشبي الكبير. تملأ المكان ضجة هدير الآلات العملاقة مصحوبة بصياح العمال، ضجة لم تألفها المنطقة من قبل، يستطيع أبو طلال سماعها حتى وهو على هذا البعد من قطعة الأرض الكبيرة.

– يعلم الله كم عدد الطوابق التي ينوون بناءها. قال أبو طلال
– انا رأيت المخطط بنفسي عمّي، خمسة طوابق. قال الشاب الذي كان يمسح الغبار المتراكم على كنبة المكتب الكبيرة المصنوعة من الجلد الصناعي الأسود. والتي كانت تشغل نصف مساحة المكتب تقريبا.
– مخطط! هه، هؤلاء لا يكتفون بخمسة طوابق، صدقني. هل شاهدت ضخامة الأعمدة؟ هل كل هذه الاعمدة الضخمة من أجل خمسة طوابق؟. أقطع يميني إن اكتفوا بعشرة طوابق. قال الدلال. تذكر أبو طلال كم بذل من جهد للحصول على قطعة الأرض الكبيرة هذه دون جدوى. تذكر كم حلم أن تكون له.
– كله من جميل زوليّة الله لا يـــ..... أستغفر الله. يقولون الرحمة فقط تحلّ على الميت. قال الدلال في نفسه.

كان جميل زوليّة رجلا غريب الأطوار، لم يعرف أحد من يكون وما كان يعمل. وقد لُقب بذلك لأنه كان يطلب لقاء خدماته الجليلة التي كان يقدمها للزبائن مبالغ كبيرة من المال. مبالغ يستحقها بجدارة لأن ما ينجزه زوليّة لا يستطيع أحد

غيره انجازه. ذات مرة لم يكن لدى أحد زبائنه ما يكفي من المال، فما كان من جميل إلا أن أخذ منه سجادة من نوع كاشان أصلي وخرج.



الصورة (٢٩)

يدَّعي جميل زوليّة أنه معقب معاملات. ويدَّعي أن لديه علاقات واسعة مع مختلف المسؤولين. وأنه قادر على إنجاز أي معاملة مهما كانت عويصة أو غير قانونية مقابل أجر يتم الاتفاق عليه مع الزبون. الا أن بعض الناس يقولون أن لدى جميل خرزة تمكّنه من التأثير على أكبر مسؤول واستحصال موافقته وتوقيعه على أمور غير قانونية. أما أبو طلال فهو مقتنع تماما أن أبا زوليّة لديه عظم هدهد. وبعضهم كان يقول أن لدى جميل منطق قوي بالاقناع، ويقول آخرون أن جميلاً راضع مع أبليس.

كان أبو طلال قد اتفق مع جميل زوليّة لتحويل ملكية القطعة الكبيرة العائدة الى أبي سرور حيث كان قصرهم المنيف مشيدا عليها فيما مضى، والتي تبلغ مساحتها دونما وثلاثة أولكات وعشرين مترا مربعا باسمه مدّعيا أنها كانت تعود لعائلته، بعد أن أختفت عائلة أبي سرور منذ زمن بعيد ولم يظهر لهم وريث. إلا أن جهود أبي طلال ذهبت سدى. فها هي القطعة قد صارت ملكا للحوت، (هكذا كانوا يطلقون على هذا الرجل المتنفذ)، وهو يقوم ببناء عمارة عليها الآن. لا يستطيع أبو طلال إلا أن يتحسّر ويندم على ما بذله من مال ووقت من أجل الحصول عليها. فمجرد التفوه بأي كلام بخصوص هذه الأرض، أو بخصوص علاقة الحوت بها قد يكلفه حياته. لذلك فقد آثر السكوت، ولم يجد غير شتم الآخرين في سرّه وسيلة للتنفيس عن غضبه الذي يبدو أنه آخذٌ بالازدياد مع ازدياد عدد الطوابق التي يتم تشييدها على قطعة الأرض تلك.

مشهد من العام ٢٠٠٣

عندما عادت الحياة الى المدينة بعد انتهاء حرب السنوات الثمانية، لم يعد جميع الجيران القدماء الأثرياء الى كورنيش المناوي، بل زاد عدد الغرباء الذين لا يعرفون عن المنطقة أي شيء. ولذلك كان الذي يصادف سرور المجنونة وهي ذاهبة الى الكورنيش لتصطاد لم يكن يعرف من هي ولا من أين أتت، ولم يكن يعرف شيئا عن قصتها، ولا يعيرها أي أهتمام. فهي ليست الا امرأة مجنونة قذرة المنظر، تبلغ من العمر نحو ستين عاما أو ربما أكثر من ذلك. أما هي ولكونها كانت منعزلة عن البشر، فلم تشعر بتغير السكان من حولها.

في ربيع عام ٢٠٠٣ ارتجت الأرض، وضاقت على أهلها بما رحبت مرة أخرى كما حدث ذلك في العام ٩١. وانشغل الناس بالخوف من الموت تارة، وبالبحث عن الماء والطعام تارة أخرى، ثم بالخوف من السلب والنهب والفوضى أخيرا. وانشغل الجميع كلٌ بهمومه ومتطلبات حياة اسرته الأساسية. وما إن انقشع غبار الحرب والفوضى قليلا حتى أكتشف الناس أن القصر الذي كانت سرور تعيش فيه قد أختفى من الوجود تماما، وتحول الى قطعة أرض خالية تبلغ مساحتها دونما تقريبا. لم يكن أحد يعلم على وجه الدقة ما إذا كان القصر قد هدم بسبب القصف أم أنه هُدم من قبل أشخاص مجهولين باستخدام معاول أو مكائن أو متفجرات. إذ لم يكن في المنطقة أحدٌ ليشهد بعينه ويروي قصة هدم القصر وقتها. ولم يتم العثور على سرور المجنونة التي كانت تسكن القصر وحيدة. إن تحرينا الدقة، لم يبحث عنها أحد، ولم يكلف أحدٌ نفسه عناء السؤال عنها حتى. أما جيرانها القدماء الذين هاجروا الى أوربا، فربما ما زالوا يبحثون عنها في الفيسبوك حتى هذه اللحظة.

مشهد من العام ١٩٨٩

عادت الحياة توا الى مدينة البصرة بعد أن انتهت الحرب التي استمرت ثمان سنوات. فقبل سنتين كانت المدينة شبه خالية من السكان. بعد أن هاجر الناس الى المحافظات الأخرى هربا من القصف المدفعي الذي كان يدك المدينة بشكل يومي تقريبا. لم يبق الا عدد قليل من العائلات. عندما عاد بعض الجيران القدماء الى تلك المنطقة المحصورة بين شارع الكورنيش من جهة الشرق، وشارع الاستقلال

من جهة الغرب، وشارع ١٤ تموز بين مبنى غرفة التجارة وبيت المحافظ من الشمال ونهر الخورة من جهة الجنوب، ليرمموا بيوتهم التي أصابها خراب واسع، وليعالجوا الثقوب التي أحدثتها شظايا القنابل في الجدران التي لم تسقط، وجدوا أن القصب قد نبت في تشققات تبليط الشارع الرئيسي والشوارع الفرعية، وأن العاقول والحلفاء قد غطَّت الأرصفة تماما، وتفاجأوا حين لاحظوا أن محلتهم التي احتفظوا بها في ذاكرتهم طوال الوقت حين كانوا نازحين في محافظات أخرى لا تشبه محلتهم هذه التي عادوا اليها. الا أنهم وجدوا أن بيت أبي سرور ذي الطابق الواحد والمبني من الطابوق سليمٌ تماما. لم يكن أحد يعلم كيف نجا ذلك القصر الكبير المتكون من عشر غرف وصالة ومطبخ ومرافق أخرى، والذي كان يتوسط حديقة غناء تضم أنواعا نادرة من الأشجار والنخيل والازهار، والذي لا يفصله عن شارع الكورنيش سوى مسافة بسيطة. ولم يكن أحدٌ يعلم كيف بقيت سرور على قيد الحياة كل تلك المدة وحيدة ليس في بيتها فحسب، بل في ذلك الجزء المهجور من المدينة.

مشهد من العام ١٩٨٧

كانت عائلة أبي سلام آخر العائلات الباقية في الشارع. فقد رحل الجميع بعد تردد الى جهات عديدة. عندما قررت عائلة أبي سلام الارتحال الى كربلاء، حمّلوا بعض أثاثهم بسرعة على ظهر سيارة شحن كانت تقف أمام باب بيتهم، كانوا قلقين على مصير سرور التي تسكن القصر المجاور لمنزلهم والمشيد على قطعة أرض تبلغ مساحتها دونما تقريبا.

– مسكينة من سيرعاها؟ قالت أم سلام.
– لم لا نأخذها معنا. قالت سلمى البنت الكبرى
– ليتنا نقدر، وليتها تقبل. قالت الأم.

قبل أن تتحرك الشاحنة، وقبل أن تنحشر العائلة بالسيارة الصغيرة موديل ميتسوبيشي منطلقين الى سكنهم الجديد في محافظة كربلاء، حاولت أم سلام وابنتها سلمى المرور على جارتهم سرور لرؤيتها ووداعها ربما للمرة الأخيرة. حملتا اليها قدرا به طعام، وكيسا به كليجة، طرقا الباب، ولكنها لم تفتح لهما. لم يفارق القلق قلب أم سلام على سرور طيلة الطريق الذي كان موحشا ومليئا بالسيارات العسكرية والسيارات التي تحمل على ظهورها توابيت الشهداء الملفوفة بالعلم العراقي، ولكنها قررت أن تدعو لها بالسلامة عندما تصل الى كربلاء. شعرت بالراحة عندما خطرت عليها الفكرة الأخيرة، ويمكن أن تكون قد غفت بعض الوقت أيضا.

مشهد من العام ١٩٧٧

كانت سرور المجنونة تأخذ الشمس عصر كل يوم وتجلس على ضفة شط العرب لتصطاد السمك. لم يشاهدها أحد يوما قد اصطادت زورية حتى، ولكنها كانت تجلس لساعات يوميا هناك تراقب مرور السفن والزوارق. لا تعود الى القصر الا قبل الغروب بقليل. ملابسها كانت مقبولة نوعما في البداية، عبارة عن تنورة وقميص، وكانت تضع قبعة. الا أن هيئتها ونظافتها، وحتى تقاطيع وجهها وصحتها

كانت تتدهور باستمرار. في الأيام الأخيرة قبل هجرة العوائل الى المحافظات كات ترتدي أسمالا، وتضع كيسا من النايلون على رأسها.

منذ أن اختفت عائلتها بشكل غامض قبل سنوات، ظلت سرور البنت التي كانت تبلغ بضعا وعشرين سنة تعيش وحدها في قصر العائلة. لا يتذكر الجيران أن سرور كانت مجنونة قبل العام ١٩٧٠، ولكن ربما صدمة اختفاء والديها كانت وراء تدهور حالتها العقلية. ظل الجيران يقدمون لها ما يستطيعون من دعم، ولكنها بمرور الزمن صارت انطوائية أكثر فأكثر حتى أنها في الأيام الأخيرة قبل اشتداد القصف المدفعي على المدينة كانت لا تكلم أحدا ولا تفتح الباب لأحد. ولكنها واظبت على اصطياد السمك عصرا.

مشهد من العام ١٩٧٠

عندما عادت سرور من ثانوية العشار للبنات عصر ذلك اليوم من أيام آذار وهي ترتدي الزي الموحد لطالبات الثانوية، بدت قلقة ومضطربة، ذلك لأنها اعتادت أن يمر عليها والدها بسيارته الفولفو الخضراء ليقلها الى البيت بعد انتهاء الدوام. أما إذا كان الأب مشغولا فان سائق العائلة (أبو شمخي) هو الذي يأتي الى المدرسة بالسيارة الثانية من نوع شوفرليه زرقاء اللون. ولكنها في ذلك اليوم انتظرت طويلا ولم يأت أحد. فقطعت المسافة لأول مرة في حياتها مشيا من ثانوية العشار للبنات في الكزارة حتى وصلت الى البيت الواقع على كورنيش المناوي، فوجدت أبوابه مفتوحة ولكن لا أثر لعائلتها المتكونة من أب وأم فقط فضلا عن

عدد من الخدم. دخلت وأغلقت الابواب، حاولت الأتصال تلفونيا بصديقاتها، الا أنها وجدت أن خط التلفون كان مقطوعا. لم يعلم الجيران أي شيء ليلتها. ولم يعلموا أي شيء عن حادثة اختفاء العائلة الا بعد مرور مدة طويلة من الزمن، ربما أسبوع أو شهر. ولم تكن المسافة التي كان يتعين على سرور قطعها إن هي حاولت الخروج تلك الليلة لطلب النجدة من الجيران قصيرة، ذلك أن البيت يقع وسط بستان كبير. وكان عليها أن تسير وسط الظلمة مسافة لتصل الى أقرب باب. ثم ما الذي ستقوله للجيران إن هي ذهبت لتطرق أبوابهم في مثل هذه الساعة من الليل.

لا يعلم أحد كيف قضت سرور تلك الليلة وحيدة خائفة في ذلك البيت المترامي الأطراف ذو الغرف العشرة. ولا يعلم أحد أي رعب ظلت تعيشه سرور في الايام والليالي اللاحقة لتلك الليلة المشئومة. تركت سرور المدرسة، وانقطعت عن العالم. وبدأ الغموض يحيط بها. وبدأ العالم يصير أكثر سوادا في نظرها. ولم ينقذها من الخوف والقلق والحزن الا شيء واحد. كان ذلك الشيء هو الجنون.

منذ ذلك الحين همس الجيران حول اسباب اختفاء العائلة، فقد اعتقد البعض أن أسبابا سياسية كانت تقف وراء حادثة الاختفاء، فيما اعتقد آخرون أن اسبابا مالية تتعلق بالشركاء، أو المتعاملين أو ما شابه كانت وراء تلك الحادثة. عموما لم يكن لعائلة سرور أقارب من المنطقة، ذلك لأن تلك العائلة كانت قد جاءت من بغداد وسكنت البصرة منذ زمن بعيد. كانت البصرة مدينة مفتوحة بحكم كونها ميناء، بامكان أي انسان أن يسكن فيها، لا يضايقه أحد، ولا يسأله أحد من أين أتيت ولم أتيت. ولم يكن الوضع عندما أختفت العائلة بظروف غامضة ليسمح بأن

يقوم الجيران بعمل ما. فقد كان الخوف قد هيمن على المدينة ذلك الوقت بسبب حملة اعدام الجواسيس، إذ لم يكن الكثيرون يصدقون الرواية الحكومية وقتها. إلا أن الجثث التي بقيت معلقة في ساحة أم البروم لثلاثة أيام كانت سببا كافيا لسكوت الجيران عن حادثة اختفاء عائلة سرور الغامضة. لا سيما أن الجيران وجدوا أن الشرطة لا تقوم بأي عمل بخصوص الحادثة.



الصورة (٣٠)

مشهد من العام ١٩٦٩

كانت سرور الفتاة الجميلة التي تبلغ من العمر سبعة عشر عاما تجلس في غرفتها تبكي. فقد تقدم لخطبتها شاب من عائلة ميسورة من المدينة. كان والده يدير أعمالا ناجحة في التجارة. وربما كان يمتلك معملا أو مطحنة أو ما شابه. كانت عائلته تتردد على زيارة عائلة أبي سرور كما روى الجيران. تذهب العائلتان معا أيام العطل للنزهة في البساتين التي كانوا يملكونها في الصالحية على الضفة الشرقية من الشط. الا أن والدها وبشكل غير متوقع رفض. ولم يبين أسباب رفضه لزوجته التي ساورها القلق. سمعت والديها يتحدثان في الصالة.

– طامعون بفلوسنا. أنا أعرفهم هؤلاء الناس. قال الأب
– ماذا يعني ذلك؟ كلما تقدم أحد قلت طامعون بثروتك، لن تتزوج البنت على هذا الأساس. قالت الأم
– لا لن تتزوج، تمام؟ هل أكتفيت الآن؟

ربما منذ ذلك اليوم بدأت سرور تتغير، فلم تعد تلك الفتاة المرحة المفعمة بالنشاط. كانت تعتقد أن ثروة والدها ستكون سببا لتعاستها. هكذا قالت ذات مرة لأحدى صديقاتها في المدرسة. الا أن ذلك لم يكن سببا لفقدانها رشدها.

الحكاية العاشرة



الصورة (٣١)

جاسم

الحكاية العاشرة

جاسم

يتردد جاسم يوميا على المنطقة الصناعية القديمة في باب الزبير. يعرفه جميع أصحاب محلات بيع المواد الانشائية، ويعرفه المتبضعون، وهم غالبا ما يكونوا مقاولين ومتعهدي بناء، يأتون الى هذه المنطقة لشراء ما يحتاجونه في عمليات البناء من سمنت وكاشي وحجر وكل ما يخطر على بالك من مواد البناء.

تقع المنطقة الصناعية القديمة خارج المدينة أو على اطرافها الغربية سابقا. ولكن مسؤولي البلدية وجدوا أنها قد أصبحت في قلب المدينة بعد أن توسعت المدينة على مناطق جديدة مثل الجمعيات والحيانية والقبلة. فصار لزاما نقلها. تم تعويض أصحابها بقطع في المنطقة الصناعية في حمدان، على أن يقوموا بتحويل قطعهم الى استعمالات تجارية. لم ينفذ الأمر كالعادة رغم مرور نصف قرن تقريبا. اذ بقيت المنطقة تضم معاملاً للثلج، والأثاث، فضلا عن أن بعضها تحول الى مخازن للمواد الأنشائية والسمنت بالدرجة الأساس.

تنحصر المنطقة الصناعية القديمة بين شارع الخليج العربي شمالا، والذي هو

طريق بصرة زبير والذي يمتد من ساحة سعد بمحاذاة المستشفى، وشارع ١٤ تموز جنوبا، وبين طريق الفاو غربا وامتداد شارع التنانير شرقا.

يضم هذا المربع أبنية مختلفة وغير متجانسة بالمرة مثل كراج البلدية، وسجن قديم كان قد شيده البريطانيون، ومقبرة لليهود، ومعارض للسيارات، وأقدم مشروع اسكاني نفذته البلدية في الخمسينات من القرن العشرين، كما يضم منشآت صحية مثل الطب الذري وصيدليات ودوائر رسمية ومساكن، فضلا عن المنطقة الصناعية القديمة.

كان جاسم يتجول صباحا بين مخازن المواد الإنشائية تحديدا وبعض المعامل القديمة. يسخر منه البعض، ويشفق عليه البعض الآخر، ويشمئز منه البعض. يدلف ظهرا كل مرة في أحد المخازن حيث يتناول العمال وجبة غدائهم، فيفردون له حصة ليأكل ويشرب بعيدا عنهم، وأحيانا إن كان مزاجه جيدا، يسمحون له لينام القيلولة في الظل لا يزعجه أحد.

لا أحد يعرف من أين يأتي كل صباح وأين كان يبيت ليله، ولم يكلف أحد نفسه عناء مثل هذا السؤال الذي لن يقدم و لن يؤخر.

جاسم رجل شاب أو ربما في نهاية الأربعينات من عمره، لا أحد يستطيع الجزم، ذلك لأن مظهر المجانين لا ينبئ عن أعمارهم بدقة. يرتدي معطف جيش قديم كان لونه كاكي فيما مضى، ولكنه الآن عبارة عن دثار قذر لا يستطيع أحد

تمييز لونه. يرتدي جاسم معطفا فقط لا غير. وهو رجل طويل، نحيف، لحيته كثة، حافي القدمين.

إن تُرك لحاله لا يؤذي أحدا غالبا. يأكل ما يُقدم له من طعام. ويشرب ما يُقدم له من ماء أو من مشروبات غازية. وإن سُمح له بالنوم ينام. لا يلح بالسؤال بل يقف برهة من الوقت أمام مخزن أحدهم، فإذا كان ذلك الرجل حكيما وفهم ما يحتاج اليه جاسم، كان ذلك جيدا، أما اذا لم يفهم فإن جاسم يغادر ليقف برهة أخرى بباب آخر. فإذا لم يكن لدى جاسم حاجة فإنه يتجول ببساطة. ولكنه أحيانا يركض كما لو أن هناك من يطارده عبر شوارع المنطقة الصناعية القديمة التي كانت خالية أغلب الوقت.

عندما يتنمر عليه بعض العمال من الصغار والذين التحقوا حديثا بالعمل في هذه المنطقة، فإنه يزبد ويرعد ويُستشاط، وتخرج الكلمات من فمه غير مفهومة. وساعتها تفشل كل محاولة لتهدئته، قبل أن يتعب هو نفسه من الصياح والشتائم وإصدار الأصوات التي لايفهمها أحد. وهو أحيانا كثيرة يدخل في نوبة الهياج تلك من دون أن يتعرض له أحد بسوء. ولا يعلم أحد لِمَ يفعل ذلك.

اختلفت الأقاويل والتفسيرات والأخبار بشأنه. فمنهم من كان يصرّ على أن جاسم في زمن سابق كان شابا سويّا، ولكنه أحب فتاة ولم يتمكن من الزواج منها ففقد عقله. وينسج أصحاب هذا الرأي حكاياتهم من خيالهم الخصب، ومن قصص الحب التي قرأوها، والتي يزخر بها التراث مثل قصة غيدة وحمد، وقيس

وليلى، وعنتر وعبلة فضلا عن قصص الأفلام المصرية والهندية التي كان يدمن على مشاهدتها الكثيرون في ذلك الزمان.

بيد أن أصحاب المتاجر كبار السن الذين كانوا مشغولين بحساباتهم وسجلات المواد الداخلة والخارجة، ومتابعة أسعار صرف الدولار فقد كانوا يروون قصة أخرى مختلفة تماما. إذ كانوا يصرّون على أن جاسم كان يمتلك معملا هنا في المنطقة الصناعية القديمة. ويقولون أنه كان يسهر مع صديق مقرب له كل ليلة في أحد بارات العشّار، يشربان العرق ويأكلان الكباب ويستمعان لأغاني أم كلثوم. كانا مثل أخوين. وعندما حلّت ساعة التمليك وتسجيل الأملاك في دائرة التسجيل العقاري، استحوذ صديقه على المعمل، إذ عرض ورقة أصولية موقعة من قبل جاسم يقر فيها أنه قد باع له المعمل أرضا ومشيدات، وقبض المبلغ المتفق عليه كاملا غير منقوص. ويعتقدون أن تلك الورقة كانت صحيحة، ولكن جاسم قد وضع عليها توقيعه عندما كان مخمورا، ولم يكن بكامل وعيه، كما أنه لم يقبض فلسا واحدا. ولا يعلم أصحاب السجلات الضخمة ما إذا كان جاسم قد تأثر بخيانة الصديق فجنّ، أم أنه تأثر بخسارة الملك ففقد عقله، ولكنهم كانوا يميلون الى الرأي الثاني غالبا.

ويذهب آخرون الى أن جاسم كان غنيا فقد ثروته كلها بصفقة خاسرة واحدة، لذلك فقد توازنه، ولم يكن قادرا على تحمل الصدمة. بيد أنهم جميعا واهمون.

وحده جاسم يعرف الحقيقة التي لم يبح بها لأحد قط. وحده كان يعاني من آلام

لا يدركها غيره. وحده كان يرى كل لحظة أهوالا من العذاب لا يراها أحد سواه.

كان أهل جاسم فقراء قدموا من ريف بعيد لا يتذكره هو. بنوا أكواخهم البسيطة في منطقة لا يعرف أين كانت. كل الذي يعرفه أنه كان صغيرا، وكان يلعب ويلهو مع أخته التي تكبره. وعندما كبرا، كانا يعملان مع الكبار في نقل صناديق التمر، أو في فشق التمر واستخراج النوى، أو بأعمال أخرى مختلفة مرتبطة بالتمر.

كبرا معا وصارا حَدَثين، يذكر أن أخته كانت قد تغير شكلها، وهو أيضا حدثت لجسمه تغيرات لم يكن يدرك معناها. اذ فقد السيطرة على صوته الذي صار يخرج من فمه مضحكا، خشنا أحيانا وغير منتظم في أغلب الأحيان. ثم أكتشف أن شاربه بدأ يظهر، وبدأ الشعر ينبت في أماكن أخرى من جسمه.



الصورة (٣٢)

ذات يوم، وحين كان جاسم مشغولا بتحولات صوته المربكة، اضطربت الأكواخ أيّما اضطراب، وشاع بينها كلام عجيب. ثم وجد حشدا غاضبا ثائرا من أعمامه وأبنائهم وهم يموجون ويتقافزون في فناء بيته الذي كان عبارة عن خصّ يحيط بصريفتين. وثمة حمّام قد بُنيَّ في زاوية من زوايا البيت، جدرانه من القصب البالي، وبابه من صفيح متهرئ صدئ. توجهوا اليه، حاصروه، صبوا عليه سيلا من الأوامر.

– جويسم ولك هذا شغلك
– ترضى يقول عنك الناس جبان
– جويسم احنه نقدر عليها بس انت أولى بيها
– جويسم لا تصير جبان
– هذا شان الزلم يا جويسم
– اغسل عارك بيدك وامشي على طولك
– لو تريد تعيش طول عمرك مطاطي يا جويسم
– النار ولا العار يا جويسم

حاصره الحشد الغاضب بتلك الكلمات دون أن يعرف السبب. لم يكلّف أحدُ اولئك الغاضبين الذين كانت عيونهم تقذف شررا أن يشرح لجاسم ما الذي حصل. وانطلقت زغاريد، وجد نفسه حائرا ورأسه يدور، والدنيا كلها تدور، الشمس في السماء تدور، والصريفتان اللتان عهدهما ثابتتين كانتا تدوران أيضا، وثمة بندقية كلاشنكوف قد ألقيت في حضنه، لا يعلم من أين جيء بها.

ثم وجد نفسه وهو يبكي مثل طفل بعد أن خرج الحشد من فناء البيت، ليحتشدوا في الزقاق بين الأكواخ وهم يهزجون، ويدورون، ويطلقون النار في الهواء.

– ها خوتي ها!

فيستولي على العالم ايقاع رتيب، وتهتز الأرض تحت أقدام أولئك الرجال الغاضبين . وتنطلق في الفضاء غمامة من التراب تلونها شمس عصر ذلك اليوم بلون الدم تكتنف أكواخ النساء الباكيات سرا في ظلمات الصرائف الحزينة، لتصل عنان السماء. يبدو أن الموت قد خيم على المنطقة، إذ كان الناس في ذلك الزمان يؤمنون أنهم اذا ما رأوا الغبار الأحمر عالقا في السماء فهي علامة على الحرب أو سفك الدماء.

اقتربت منه أخته وهي تبكي، قالت له:

– ماكو چاره خويه جويسم، ما بيدك شي، ما راح تشوفني، راح ادخل بالحمام، وانت ارمي على الباب. ارمي واطلع من البيت.

بعد عدة محاولات فاشلة، وبعد تردد طال زمنا لا يدري جاسم كم كانت مدته. وبعد أن خانته ركبتاه، وجف ريقه، وتدلى لسانه جافا حتى وصل أسفل حنكه وهو يلهث مثل كلب عطشان، وبعد أن تيبست يداه، وسقطت الكلاشنكوف من يده مرات. كان يتوجه الى باب الحمام حيث تختبيء أخته، ولكنه يجد نفسه يصوب باتجاه باب البيت حيث تهزج العشيرة هناك.

دار مثل قط شرب سما يمزق الأمعاء للتو، دار كمن يجد أن نارا قد شبت في جوفه، ونارا قد شبت حوله. وأخيرا نجح فقد أطلق النار على الصفيحة الصدئة. خيم سكون وصمت عجيبين بعد أن أفرغ شاجوره، لم يكن يسمع سوى أنفاسه التي تشبه أنفاس حصان. وبعد لحظة تعالت زغاريد نساء، ثم عادت أقدام الرجال المحتشدين في الخارج تثير مزيدا من الغبار وتواصل زلزلة الأرض. وقف جاسم وأسقط البندقية من يده والدخان ما زال يخرج من فوهتها. لم يخرج كما نصحته اخته، بل دنا من باب الحمام الذي كان مثقبا كمنخل، كان يتمنى في قرارة نفسه أن يرى أخته واقفة هناك سليمة لم تمسها رصاصة، أو أن يجدها قد فجَّتْ خصَّ القصب الواهي ونفذت منه الى الجهة الأخرى. ولكنه عندما دفع الباب وجدها هناك.



الصورة (٣٣)

كان مشهد الدم وهو يسيل حارا كأنه أفاعي حمراء، ظلت تطارده ليل نهار، تخرج من ثقوب تلك الصفيحة الصدئة. تخرج من بين قصب الخصّ المتهرئ، تخرج من كل مكان، تتلوى في الفضاء، تطلق صراخا مرعبا، فحيحا يصمّ الآذان، وينفذ الى أعماق الدماغ، مثل مزرف، بل عشرات المزارف الحادة التي لا يوقفها شيء.

كان يركض في شوارع المنطقة الصناعية القديمة المهجورة لأنه شاهد طيفها يجول هناك، هناك فقط، لا يدري جاسم لم تتجول أخته في هذه الأزقة دون غيرها، يتبعها، يريد أن يعتذر منها، يريد أن يتأكد أنها هي، يريد أن يقول لها شيئا ما انفك يعتمل في قلبه، ولكنه يظل حائرا، فلا هو يعثر عليها، ولا هو يعرف ما الذي يود قوله. ثم تعاود الأفاعي الحمراء العملاقة التي تفحُّ تطارده. فلا يعلم إن كان هو الذي كان يجري وراء شبح أم أن الأشباح هي التي كانت تجري في أثره.

وحده جاسم يرى تلك المشاهد كل يوم، ولا يستطيع أن يبوح بها لأحد. فقد قدرته على النوم، وفقد الإحساس بأي شيء أخر سوى تلك الأصوات النشاز التي تجعل أوقاته جحيما لايطاق.

الحكاية الحادية عشرة



الصورة (٣٤)

أمل

الحكاية الحادية عشرة

أمل

في البدء أود أن أبين لكم أنني لست كاتبا ولا محاميا ولا صحفيا، وليس لي أي علاقة بهذا الأمر لا من قريب ولا من بعيد. فأنا موظف بسيط أعمل في دائرة الموانيء، أسكن في أم قصر في البيت الذي ورثته عن والدي الذي كان يعمل في الميناء هو الآخر. وحدها الصدفة أو القدر أو شيء آخر لا أعلم ما هو ذلك الذي جعلني في موقف ذات يوم لأجد نفسي متورطا الى درجة الهوس بقصة السيدة أمل، أو أمل المجنونة كما يطلق عليها الناس، حين عثرت على أوراق تعود لها، وهو ما دفعني للبحث عن معلومات اضافية عنها لاشباع فضولي لا أكثر ولا أقل.

يراها أصحاب أكشاك كتابة العرائض أغلب أيام الأسبوع وهي تتردد على المحكمة منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام. امرأة في الثلاثين أو ربما في الاربعين من عمرها. ترتدي السواد. كل من يراها صباحا يعرف أنها لم تنم الليلة السابقة، عيناها متورمتان من أثر البكاء أو السهر. ولكن قوة غريبة تكمن في تعابير ذلك الوجه الذي لاحظ الجميع أنه بدأ يتغير، فبعد أن كانت جميلة قبل ثلاثة أعوام كما

روى لي عدد من الذين عرفوها، أو الذين كانوا يشاهدونها وهي تذهب صباح كل يوم لايصال طفلها الى الروضة، قالوا أنها كانت في غاية الجمال، وفي غاية النشاط، وفي غاية الأناقة، ولم يزيدوا على ذلك، ولكنها صارت قاسية الملامح. ولست متأكدا ما اذا كانوا يعنون ما قالوه عنها تماما، وهل أنهم فعلا كانوا يلاحظوا اختلافها عن السيدات الأخريات في ذلك الوقت، أم أن قصة تغيرها هي التي دفعتهم لقول ذلك، وأنها ربما كانت عادية لا تختلف عن النساء الأخريات. على كل حال فهي تبدو كما لو أنها كبرت ثلاثين عاما في غضون السنوات الثلاث السابقة، كما وصفها أحدهم، وهو ما وجدته وصفا أقرب الى التصديق. تحمل معها دائما حقيبة فيها أوراق.

كل موظفي المحكمة يعرفون أمل. وكلهم يدركون أن لا فائدة ترتجى من مواظبتها على المجيء للمحكمة. فقد تم حسم الدعوى خاصتها منذ زمن بعيد. فقد صدر حكم من محكمة الاحوال الشخصية، وصدر حكم من محكمة التمييز، واكتسب الحكم الدرجة القطعية، ولم يعد لوجودها في المحكمة من معنى. ولكن الجميع يعلم أن أمل قد فقدت عقلها. فمجرد ترددها على المحكمة كل يوم ما هو الا دليل قاطع على ان المرأة قد انفصلت تماما عن الواقع.

– الا تملّ؟ تساءل أحدهم.
– الا تسأل نفسها عندما تعود الى البيت ما الذي حققته من قضاء النهار في أروقة المحكمة؟ قال آخر.
– وهل يلام المجنون؟ ليس على المجنون حرج. قال ثالث.

كانت أمل منذ سنوات فتاة جميلة مفعمة بالنشاط والحيوية. تخرجت من كلية من كليات جامعة البصرة، لم يتسنَ لي معرفة الكلية والقسم بعد. ذلك لأن الذين قابلتهم وسألتهم عنها كانوا من جيران عائلتها، وكل الذي يعرفونه عنها أنها كانت في الجامعة، ولم يحاولوا أن يعرفوا أكثر من ذلك.

قال لي أبو حسن صاحب الدكان الوحيد في منطقتهم قبل أن تتكاثر الدكاكين لتصير أكثر من عدد الدور أنها كانت أجمل وأسعد طالبة جامعة شاهدها يوما. عندما تقدم شاكر لخطبتها، وبعد أن تم عقد قرانهم وبدءا بالخروج لشراء مستلزمات بيتهم الجديد، قال الجيران أن هذا الولد لم يكن غريبا عليهم. قالوا ان وجهه مألوف لديهم، وكأنهم يعرفونه منذ زمن بعيد. آخرون قالوا أنهما كانا لائقين لبعضهما تماما. فكلاهما كانا متفائلين، وكانا سريعا الحركة، ورشيقين، ويبتسمان دائما. تزوجا وانجبا ثلاثة اطفال أكبرهم حيدر الذي كانت توصله أمه الى الروضة صباح كل يوم.

والد أمل موظف متقاعد، هو شخص محافظ جدا، لا يقبل أن يتحدث عن ابنته أمام الغرباء، ولكن عدنان صديقي الذي يمتُّ اليهم بصلة رحم بعيدة نسبيا لا أتذكر ماذا كانت بالضبط، قد قال لي أن أبا أمل رجل خائف دوما. فهو يخاف من كل شيء ومن كل شخص، بإمكانك أن تقول أنه كان يخاف فقط، لذلك فهو كثيرا ما كان يتنازل بسهولة عن حقوقه، ويتحاشى أي مواجهة مع أي أحد. عندما ساءت علاقة أمل بزوجها، ووصل الأمر الى الطلاق، فضّل أبوها أن يتم الأمر بهدوء.

عندما تخرجا من الجامعة لم يحصلا على تعيين في الحكومة. لكن شاكرا كان شابا ذكيا، ووسيما، ومحبوبا، كل من يراه كان يرتاح اليه. لذلك وظفه الكوسج في إحدى شركاته الكثيرة. قال أحد الجيران.



الصورة (٣٥)

بمرور الزمن صار شاكر يقضي جل وقته في الشركة، وبعد الدوام كان يلتقي مع أشخاص لهم علاقة بالشركة. ثم صار المقربون من الكوسج أصدقاءه المقربين، ثم صار لصيقا بالكوسج نفسه.

وأضاف آخر قائلا: تغيرت ملامح شاكر بسرعة. فقد صار له كرش كبير، وتغير ذوقه باختيار الملابس، وتغيرت طريقة كلامه أيضا، فقد صار يستخدم مفردات لم تسمعها أمل من قبل. ذات يوم وجدت أنه استبدل حلقة زواجهما الذهبية بخاتم فضي كبير ذي فص أزرق. وفي نهاية أيامهما معا كان لديه ربما نصف درزن من الخواتم.

قلَّ عدد الساعات التي كان يقضيها شاكر في البيت مع عائلته الى درجة خطيرة، وفي الأيام الأخيرة لزواجهما كان يبيت خارج البيت يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع. وقلَّ عدد الكلمات التي كانا يتبادلانها بشكل مقلق أيضا.

ذات يوم، وجدته زوجته وقد أفرغ الدرج الذي كان يضع فيه كتاباته وقصائد الغزل التي كتبها لها عندما كان طالبا، جمع كل تلك الأوراق وأحرقها في حديقة المنزل في التنور الذي كان يشوي به السمك سابقا، والذي تركه منذ أن توطدت علاقته بالكوسج. عندما سألتْه، قال لها ببساطة أنه لا يرغب أن يطّلع على هذه الترهات أحد، لأنها قد تؤثر على مستقبله السياسي! استغربت أمل عند سماعها ذلك. فلم تكن تعلم قبل ذلك أن لشاكر شيء أسمه مستقبل سياسي. هذا ما روته لي أحدى صديقاتها.

ازدادت ثروة شاكر بشكل غير معقول في غضون السنوات الأخيرة. ولم تعرف أمل طبيعة الأعمال التي كان شاكر ينجزها للكوسج. كل الذي عرفته أن شاكر قد اصبح من رجال الكوسج المقربين.

ذات يوم تزوج شاكر ببساطة امرأة أخرى. هكذا قال لها. عندها أنهارت وبكت، ودارت الدنيا من حولها، ذهبت الى بيت أهلها رفقة اطفالها. كانت تعتقد أن والدها سيثور، وسيقف بجانبها. سيدافع عنها ولكنها وجدت والدها يرتجف من الخوف.

– لا بأس! من حقه أهدأي يا ابنتي.

كان ذلك كل ما قاله والدها. أما أمها العجوز التي كانت تعاني من السكري وآلام الفقرات وضعف النظر. فقد حاولت اقناعها أن الرجل من حقه أن يتزوج، وأن عليها أن تتقبل الأمر من أجل الأطفال. قالت لها أن حياتها جيدة فالرجل لم يقصر بمصروف البيت.

علمتْ أمل أن شاكر قد عقد قرانه على زوجته الثانية عند أحد الشيوخ خارج المحكمة. وعلمتْ أن العروس الجديدة تبلغ من العمر خمسة عشر عاما! لم تكن تصدق ما الذي كان يجري لها ولحياتها. تقول أحدى صديقاتها ان أمل كانت قد قالت لها يوما، انها اكتشفت أنها قد تزوجت شخصا آخرا غير شاكر الذي تعرفه.

في النهاية طلَّقها شاكر ببساطة. وحضر الى البيت وكان معه عدد من رجال الكوسج، وأخذ الاطفال الثلاثة منها، كان أصغرهم ما زال يرضع. بكت وثارت، واحترقت، وتفجر الغضب فيها. كانت تريد أن يساعدها أحد، ولكنهم كانوا طوال الوقت يحاولون اقناعها انها كانت مخطئة.

لم تساعدها عائلتها على اقامة دعوى قضائية ضد طليقها. ولكنها قامت بالأمر لوحدها. كانت تبكي أطفالها ليلا، وتقاتل من أجل استعادتهم نهارا. لا استطيع أن أصف الألم والحزن والشوق الذي تعانيه أمٌ سُرق منها أطفالها الثلاثة، وحُرمت من رؤيتهم، حُرمت من ضمِّهم، وحُرمت من شمِّ رائحتهم. بل استطيع أن أقول أن ذلك عصيٌّ على الوصف. لتصف ذلك عليك أن تكون أماً، ثم عليك أن تجرب الاحساس بجرح الكرامة، ممزوجا بالاحساس بالخيانة، مخلوطا بالاحساس بالفقدان، فقدان الأم لطفلها شيء لم تتوصل لغات العالم لايجاد مفردة تليق بهذا الشعور. هذا باختصار شديد ما قالته الناشطة الحقوقية سامية عبد العزيز لي عندما استقبلتني في منظمتها عندما كنت أحاول جمع بعض المعلومات عن أمل. فضلا عن أن أوراق أمل لم تكن تتضمن أي معلومة عنها. كل ما تضمنته الأوراق معلومات عن قصص نساء أخريات فحسب.

لكنها خسرت الدعوى ببساطة. طبعا لابد أن تخسر الدعوى، فقد قُدمت أوراقٌ وشهادات تثبت أنها كانت مجنونة. قال أبو سالم كاتب العرائض في المحكمة.

فوجئتُ عندما كنت أسير على الرصيف بمحاذاة نهر العشار قرب الجسر

الذي يربط ساحة الزعيم وشارع السعدي بالشارع العام الذي يقع عليه مجمع المحاكم بصوت اصطدام سيارة كانت تسير بسرعة جنونية بشيء ما. طار ذلك الشيء بالهواء ثم ارتطم بأرضية الشارع والرصيف، هُرع الناس الى ذلك الشيء وتجمهروا حوله، واكتشفوا أنه جثة امرأة، رأسها قد ارتطم بأحجار الرصيف بقوة، وثمة بقعة من الدم سالت من تحت الرأس وانحدرت مع ساقية مياه الأمطار، سالت مثل خط متعرج لونه قاني لم يتوقف رغم كل المحاولات التي بذلت لمنعه من التمدد. بعد نقل جثمان أمل الى الطب العدلي جاءت سيارة حوضية حمراء مخصصة لأطفاء الحرائق وألقت كميات كبيرة من المياه من خرطومها على مكان الحادث لغسل بقايا الدماء دون جدوى. كنت واقفا هناك أشاهد كل ذلك بذهول، ورأيت كيف تطايرت أوراقها التي كانت تحفظها في حقيبتها. جرفت الريح بعض الأوراق الى حافة نهر العشار حيث نبت العاقول وبعض النباتات البرية الأخرى في المفاصل بين الاحجار التي رُصفتْ هناك على جرف النهر. علقتْ بعض الأوراق على الأشواك، وعلى الأشجار، وعلقتْ بالحافة المرتفعة قليلاً من السياج المبني على ضفة النهر، وسقطت أوراقٌ أخرى في المياه الآسنة التي كانت رائحتها لا تطاق. لم أكنْ أعرف أمل وقتها، ولم أسمع عن قصتها. عندما وجدت الأوراق تتطاير هناك ولم يلتفت اليها أحد، أحببت أن أقدم خدمة، فكرت أن تلك الأوراق ربما تحتوي على سندات طابو، أو مكاتبات، أو وكالات رسمية، من يدري؟ فنحن أمام مجمع المحاكم. لذا جمعتها، أو جمعت ما أمكنني جمعه منها.

– ما الذي تجمع؟ لا تتعب نفسك هي أوراق أمل المجنونة فحسب، لن تجد فيها شيئا ذا قيمة. قال أحد المارة.

ولكنني واظبت على جمع الأوراق المبعثرة.

عندما عدت الى البيت وبدأت بفرز الأوراق هالني ما وجدت. لم تكن أمل مجنونة. بل كانت امرأة عاقلة تماما تُعدُّ ملفاً متكاملاً عن حالات مماثلة لحالتها. حالات انتهاك لحقوق النساء. لا يتضمن الملف أعداد المطلقات، وأعداد الدعاوى وأعداد الاطفال فحسب، فذلك يمكن الوصول اليه ببساطة في سجلات المحاكم. ولكن ما جمعته أمل في غضون سنواتها الثلاث التي قضتها وهي تتردد على مجمع المحاكم، وعلى منازل الضحايا في عموم المحافظة، كان توثيقا لحالات من القهر، وتوثيقا لحالات انتهاك القانون، وحالات فساد لا استطيع وصفها، وربما لا استطيع نشرها. فانا لست الا موظف صغير أعمل في الموانيء، لا علم لي بمثل هذه الأمور. عندما فكرت أن أسلم الملف لشخص قادر على نشر محتوياته، حذرني صديق لي قائلا:

- **لن ينشر أحد ذلك، فالكوسج لا يسمح بذلك صدقني.**
- **سوف يتم بيعه الى الكوسج مقابل مبلغ من المال. فالمعلومات التي يتضمنها الملف يقدّر الكوسج قيمتها جيدا، ورجاله سيدفعون لقاء الحصول عليها. قال صديق آخر.**
- **سوف يشترونه برصاصة في رأسك. قال ثالث.**

(النهاية)

مصادر الصور

صورة الغلاف وصور (٤)،(٥)،(١٦)،(١٨)،(٢١)،(٢٢)،(٢٤)،(٢٦)،(٢٧)،(٢٨)،(٣٠)،(٣٢)،(٣٥)	جنان جبرائيل خمو
الصورة (١)	https://images.app.goo.gl/d7Y6PqZ1DE4qzBy69
الصورة (٢)	https://images.app.goo.gl/VdjUveQKa7C1fzLKA
الصورة (٣)	https://images.app.goo.gl/sM4sTX3m5cH8cPR59
الصورة (٦)	https://images.app.goo.gl/qbfPBGSJjheVbzAF6
الصورة (٧)	https://images.app.goo.gl/fGv7eeziWa71Yz3e8
الصورة (٨)	https://images.app.goo.gl/RyfqBhmSi5cT5d23A
الصورة (٩)	https://images.app.goo.gl/LHRkdYR932qd26tk7
الصورة (١٠)	https://images.app.goo.gl/mbEVEQ8h9zHzcwsB8
الصورة (١١)	https://images.app.goo.gl/EgTJewS4FZA5v6bF6
الصورة (١٢)	https://images.app.goo.gl/RyfqBhmSi5cT5d23A
الصورة (١٣)	https://images.app.goo.gl/VdjUveQKa7C1fzLKA
الصورة (١٤)	https://images.app.goo.gl/kQcwtoFmEqbGrWB48
الصورة (١٥)	https://images.app.goo.gl/ZMKenjZvhA4RyWS46
الصورة (١٧)	https://images.app.goo.gl/KbMrJ5Z9dsRj1w4L6
الصورة (١٩)	https://images.app.goo.gl/zkwWQYZhgwH4SV286
الصورة (٢٠)	https://images.app.goo.gl/rW98DEWmUXYkvAp99
الصورة (٢٣)	https://images.app.goo.gl/YQ24LLAVyxnoMZwk9
الصورة (٢٥)	https://images.app.goo.gl/Fkjzb1YCErfZgVw99
الصورة (٢٩)	https://images.app.goo.gl/6EnXkhSdjEhA24dS7
الصورة (٣١)	https://images.app.goo.gl/7zLyMCiySNFAjAA76
الصورة (٣٣)	https://images.app.goo.gl/9TfEgvApznkJugRb8
الصورة (٣٤)	https://images.app.goo.gl/rNvDEMQifjmHEDsx5